علوم القرآن عند ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي

د. وليد بن عبد المحسن بن أحمد العُمري
أستاذ مشارك بقسم الدراسات الإسلامية– كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الباحة

waleed@bu.edu.sa

الملخص

هذا البحث فيه إبرازٌ لعلوم القرآن التي أشار لها الحافظ ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي، في كتابه : مجالس في تفسير قوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ [سورة آل عمران:164].

هدف البحث: نظرًا لكون علوم الحديث خادمةٌ لفهم النص القرآني وعلومه، في كثير من المسائل؛ فإبراز جهود المحدثين في علوم القرآن يُحرّر كثيرًا من الإشكالات التي تَعرض في دراسته، ولأن ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي ¬ لا يُعرف عند المشتغلين بالعلوم الشرعية، سوى بعلم الحديث، والتاريخ، والسِّيَّر، فإن البحث يهدف إلى الإسهام في تسليط الضوء على جهود ابن ناصر الدِّين في علوم القرآن الكريم، وأخيرًا؛ فإن لابن ناصر الدِّين بعض الآراء في علوم القرآن –بلا ريب– تستحق النظر، والتأمل.

وقد خلص البحث إلى مجموعة من النتائج، أبرزها:

- أن علوم القرآن الكريم مرتبطةٌ بالسُنّة النبوية، فهي تُبين كثيرًا من مسائله، خاصة ما يتعلق بنزول القرآن، وتفسيره، والمسائل المرتبطة بذلك.
- اهتمام ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي ¬ بالعلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، وتطبيقها على الآية التي يُفسرها.
- تنوع مصادر ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي ¬، والاستفادة من المصطلحات نقلا، وتطبيقًا بين علمي التفسير، والبلاغة.
- تميّز ابن ناصر الدِّين بالتمثيل، والاستشهاد على كثيرٍ من أنواع علوم القرآن، وهذه مِيزة مهمةٌ جدًا؛ فالتطبيق على مسائل علوم القرآن من النصوص الشرعية؛ يُسهل فهمها، ويُعين على ضبطها.

الكلمات المفتاحية: علوم – القرآن – ابن ناصر الدِّين – الدِّمشْقِي.

4

Waleed bin Abdul Mohsen bin Ahmed Al-Omari
Associate Professor at Department / Islamic Studies.
College / Arts and Humanities - University of Al Baha - Kingdom of Saudi Arabia.
Email: waleed@bu.edu.sa

The sciences of the Qur'an according to Ibn Nasir Al-Din Al-Dimashqi

Abstract:

This research highlights the sciences of the Qur'an that Al-Hafiz Ibn Nasir Al-Din Al-Dimashqi referred to in his book: Councils in the Interpretation of the Almighty's saying: [Indeed Allah conferred a great favour on the believers when He sent among them a Messenger from among themselves, reciting unto them His Verses (the Qur'an), and purifying them (from sins by their following him), and instructing them (in) the Book (the Qur'an) and Al-Hikmah

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة آل عمران:164].

Aim of the research: First of all, it is related to the Book of Allah, and that is enough previliage; the second matter is that Ibn Nasir Al-Din Al-Dimashqi is not known to those who work in Sharia sciences, except with the science of hadith, history, and The events of the life of the Prophet, and it is an advantage of this research from two aspects: the first one is that the sciences of hadith serve to understand many issues of the Qur'anic text and its sciences. Moreover, highlighting the efforts of the Hadith scientists, frees many of the problems presented in its study. The second aspect is that this research contribute to shedding light on the efforts of Ibn Nasir Al-Din in the sciences of the Noble Qur'an. The third matter of the study is that Ibn Nasir Al-Din has some opinions about the sciences of the Qur'an - undoubtedly - worthy of consideration and contemplation.

The research has concluded with a set of results, most notably:

- The linkage among Islamic law Sciences.
- The sciences of the Noble Qur'an are linked to the Prophet's Sunnah, as it clarifies many of its issues, especially those related to the revelation of the Qur'an, and its relevant issues.
- Ibn Nasir Al-Din al-Dimashqi's interest in the sciences related to the Holy Qur'an, and his participation with its scholars.
- Diversity of Ibn Nasir Al-Din Al-Dimashqi's sources.

Keywords: Sciences - the Qur'an - Ibn Nasir Al-Din - Al-Dimashqi.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله، وصحبه أجمعين.

فإن البحث في جهود العلماء، والتنقيب عن آرائهم، يُكسب الباحث

- **أهمية البحث:**

- أنه مرتبطٌ بكتاب الله عزوجل ، وكفى بها مزية.

- أن ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي – **رحمه الله** – لا يُعرف عند المشتغلين بالعلوم الشرعية، سوى بعلم الحديث، والتاريخ، والسِّيَّر، وهذة ميزة للبحث لأمور: أولها: أن علوم الحديث خادمةٌ لفهم النص القرآني وعلومه، في كثير من المسائل، وإبراز جهود المحدثين فيها يُحرِّر كثيرًا من الإشكالات التي تَعْرِض في دراسة علوم القرآن، وثانيها: أن يُسهم هذا البحث بتسليط الضوء على جهود ابن ناصر الدِّين في علوم القرآن الكريم، وثالثها: أن لابن ناصر الدِّين بعض الآراء في علوم القرآن تستحق –بلا ريب– النظر، والتأمل، اهتمام ابن ناصر الدِّين عند تعرضه لعلوم القرآن بالتطبيق على النصوص الشرعية، واستخراج الأحكام منها، وهذا جانبٌ مهمٌ للباحثين؛ لأنه مُعينٌ على ضبط المسائل، وفهم طُرق الاستنباط من النصوص الشرعية.

- **أهداف البحث:**

1) إبراز طريقةٍ تعليميّة في تناول العلوم، مِنْ مُمَارسٍ لها، مؤهلٍ للحديث فيما يَطْرقه مِن مسائل.
2) الاستفادة من جهود علماء الحديث في إبراز إسهامهم في علوم القرآن الكريم.
3) عرض بعض المباحث التي أشار لها ابن ناصر الدِّين ، باعتبارها إضافة من جهة، والاستفادة من تطبيقاته لها من خلال تفسيره.

- **مُشْكِلةُ البَحْث:**

كيف نُقدم علوم القرآن للأجيال؟ وكيف يستطيع الطالب أن يضبط مسائل علوم القرآن؟

عندما تُستقى المعارف ممن تصدى للتدريس عقودًا من الزَّمن، ويوافق ذلك: جلوسه في حِلَق العلم مُعلمًا، وشارحًا، مع تمام الأهليَّة، فإن البحث يُقدِّم طريقة ابن ناصر الدِّين التعليمية الفريدة، وذلك من خلال طريقته، وأسلوبه في تطبيق كثير من علوم القرآن على النَّص القرآني، باعتبارها مُستقاة منه أصلًا، ولذا فهو يُقدِّم إجابات في كثير من هذه العلوم؛ إما من جهة معرفة حدودها، أو فَهم معانيها.

- **الدراسات السابقة:**

الكتابة في هذا النوع جادة مطروقة عند الباحثين، سواء في علوم القرآن، أو غيره من العلوم؛ لكن لم يَطَّلع الباحث على من تناول علوم القرآن من خلال مؤلفات ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي، وهذه الإضافة التي يرمي لها الباحث.

- **منهج البحث:** منهج وصفي، تحليلي، وأهم ما أشير إليه في منهجي في الدراسة:

- استخرجتُ مباحث علوم القرآن من كتاب ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي في التفسير، وهو "مجالس في تفسير قول الله تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ } [سورة آل عمران:164]".
- رتبتها على ترتيب المصنفين في علوم القرآن.
- مهدتُ لبعض المباحث بالتعريف بها، أو اختلاف العلماء فيها إن كان مُهمًا لفهمها، وقد يكون ذلك قبل عرض كلام ابن ناصر الدِّين، وحينًا تذييلًا على كلامه، بتوضيح النقاط التي أشار إليها، أو التعقيب على كلامه؛ نحو اعتباره الآية التي يُفسِّرها لها سبب نزول، أو لحاجة المسألة إلى بيان مناطها؛ كما في الحديث عن الصَّرفة.
- قمتُ بالتوسع اليسير في بعض المسائل المُشكلة، أو التي تحتاج لبيان؛ إما من جهة تشغيب بعض المستشرقين، كالحديث عن التأويل، وإما لكونها قليلة التداول بين بعض طلبة العلم؛ كالقول بأن ترتيب سور القرآن توقيفي.
- نظرًا لكون المُؤلَّف الذي يُعالجه البحث: مجالس يعتريها في كثير من الأحيان التكرار، فقد استغنيت بالنص الأكمل، وأحيانًا سياق نصوصٍ أُخرى؛ إن كان الأمر يحتاج ذلك.
- عرضتُ كلام ابن ناصر الدِّين في غالب الأحوال على ما هو عليه، وسُقته بطوله، لأمور، منها: جمال أسلوب ابن ناصر الدِّين في مزجٌ العلوم، وتفسير المصطلحات العِلميَّة، والتفريق بين الاصطلاحات؛ كالتفريق في مصطلح التصريف بين علم النحو، وعلم البلاغة، وكذا نقل المصطلحات من عِلمٍ لآخر، وتعريفه للكتب التي ينقل منها، والتعليق أحيانًا عليها، مع التنويع في طَرْق المعارف في التأليف، والانتقال من علمٍ لآخر، فهو يتكلم أصالة في التفسير، ثم ينتقل للبلاغة، والبيان، ثم للحديث ... وهكذا، فَيُثري القارئ، ويُلهم الباحث، ويَروي العَالِم.

لكل هذه المِيَّز؛ فقد آثرتُ ألّا أكتفي بموطن الشاهد من كلامه، بل أترك سياق كلامه كما هو طالما أنه لم ينتقل لموضوع آخر؛ كسياقه مروياته في ذات المسألة، وكذا حين يعرض نوعًا من علوم

القرآن، فيعرضه بتفنن، وتنويع، ولم أرغب أن أُخرج آراءً مجردة، تُخرج البحث جامدًا، بل ممزوجًا بأسلوب صاحب الآراء، وطريقته في التعليم باعتبارها هدفًا لاختياره عن غيره، مع رغبة إشراك القارئ متعة البحث، ولهدفِ تحفيزه مُراجعة الكتاب، لغزارة ما فيه، من علومٍ، ومعارف، ما بين تفسير، وبلاغة، ورواية الحديث، ودرايته، وتقويم المؤلَّفات – ومع ما فيه من تكرار، نظرًا لطبيعة المجالس العلمية– إلا أنه من الكتب التي تُكسب القارئ تنوعًا في العلوم، والمعارف، وترابط موضوعاتها.

– خدمة النَّص؛ كما هو المُتعارف عليه في البحوث العلمية.

- **خُطَّةُ البَحْث:**

رُتِّب البحث على مُقدمة كاشفةٍ عن أهدافه، ومُشكلته، ومَبحثين، وخاتمة.

المبحث الأول: ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي، وعلوم القرآن الكريم، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إلماحة لحياة ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي.

المطلب الثاني: تقسيمات ابن ناصر الدِّين لعلوم القرآن من حيث العموم.

المبحث الثاني: علوم القرآن عند ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي، وفيه ثلاثة عشرَ مطلبًا:

المطلب الأول: في نزول القرآن وما يتعلق به

المطلب السابع: التفسير والتأويل، الفرق بينهما

المطلب الثاني: أسباب النزول

المطلب الثامن: علم المُحكم والمتشابه

المطب الثالث: ترتيب الآيات والسور

المطلب التاسع: المتشابه اللفظي

المطلب الرابع: جمع القرآن

المطلب العاشر: الأمر والنهي

المطلب الخامس: عَدُّ آي القرآن الكريم

المطلب الحادي عشر: العام والخاص، والمُطلَق والمُقيَّد

المطلب السادس: علم القراءات

المطلب الثاني عشر: المُجمَّل والمُبَيَّن

المطلب الثالث عشر: المنطوق والمفهوم

المطلب الرابع عشر: إعجاز القرآن الكريم

وإني لأرجو الله –جلّ في عُلاه– أن يجعل هذه الورقات عمل صالح خالص لوجهه الكريم، وأن ينفع بها كاتبها، وقارئها، وناقِدَها، وعموم المسلمين، إنه على ذلك قديرٌ، واسعٌ عليمٌ، وصَلِّ اللَّهم وسَلِّم تَسليمًا كثيرًا على عبدك ورسولك نبينا محمد، وعلى آله، وأصحابه أجمعين.

المبحث الأول

ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي، وآراؤه في علوم القرآن

المطلب الأول: ترجمة موجزة لابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي

أولاً: اسمه ونسبه ومولده:

هو العلامة، الحافظ شمس الدِّين ، أبو عبد الله، محمد بن عبد الله، القَيْسيُّ، يُنسب لدمشق؛ مولدًا ووفاة، ولد ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي – رحمه الله – ، في محرم سنة (777هـ) بدمشق.

ثانيًا: نشأته: نشأ في أسرة علمية، فوالده: بهاء الدِّين ، أبو بكر عبد الله القيسي من علماء عصره، اشتغل في الحديث وغيره، وسمع من كبار علماء عصر؛ كالحافظ أبي بكر بن المحبّ، وبرهان الدِّين سبط ابن العجمي، والحافظ العراقي، وابن الملَّقن، وغيرهما، كما أخذ عن الحافظ ابن حجر، وكان من أقرانه، وأخذ كل واحدٍ منهما عن الآخر.

ودرسَ الفقه، والعربية، وارتحل مرارًا إلى حلب، وبعلبك، ومكة، والمدينة في رحلة الحج.

ثالثًا: ثناء العلماء عليه:أثنى على ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي أكابر علماء عصره، كالمقريزي، وابن حجر، وشهدوا له بالعلم، والفضل.

قال المَقْريزي[(1)]: "وطلبَ الحديث، فصار حافظ بلاد الشام غيرَ منازع، وصنَّف عدّة مصنَّفات، ولم يخلف في الشام بعده مثله".

قال ابن حجر في ترجمته[(2)]: " وسمع من شيوخنا، وممن مات قبل أن أرحل من الدِّمشْقِيين، وأكثر، ثم لما خلت الديار من المحدثين، صار هو مُحدث تلك البلاد، وقد صنف تصانيف حسنة، منها ... ورحل إلى حلب بأخره، سنة سبع وثلاثين، فسمع من الشيخ برهان الدِّين سبط ابن العجمي، ومن قاضيها علاء الدِّين ، وذكره في تاريخه، وأثنى على فضائله ..".

(1) المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي (1418هـ – 1997م.) السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة 1 (7 / 423).

(2) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني (1415هـ –1994م) المجمع المؤسس، تحقيق: د.يوسف عبد الرحمن المرعشلي، بيروت: دار المعرفة، الطبعة1 (3/ 285-289).

وقال فيه تلميذه رضي الدِّين أبو البركات، محمد بن أحمد بن عبد الله الغزي: "شيخنا الإمام، العلامة، الحافظ، المؤرخ، شمس الدِّين ، محدِّث العصْر"[1].

رابعًا: أبرز شيوخه: من أبرز من أخذ عنهم ابن ناصر الدِّين ، واستقصاهم د. إبراهيم بن حمود، وعنه أذكر بعضهم:

1 . إبراهيم بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد المقدسي، الصالحي الحنبلي، توفي سنة 800هـ.

2 . إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن عمر بن مُسلم الصالحي، الدِّمشْقِي ويُعرف بابن المُدركل، توفي سنة: 803 هـ.

خامسًا: أبرز تلامذته: درَّس – رحمه الله – في دار الحديث الأشرفية ، ومن أبرز تلاميذه:

- برهان الدِّين الحلبي الدِّمشْقِي الشافعي، إبراهيم بن محمد بن محمود، ، ويعرف بالناجي، ت:900هـ
- أبو بكر بن إبراهيم بن يوسف البعلي الصالحي، الدِّمشْقِي، الحنبلي، المعروف بتقي الدِّين ابن قُنْدُس، ت:861هـ.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الإمام المحدِّث، وكان من أقرانه. ت: 852هـ[2].

سادسًا: مؤلفاته: له ما يفوق سبعين مؤلفًا، ومعظمها أجزاء حديثية، وقد طُبع أغلبها، وقد جمعها عند تحقيق أحدها: د. إبراهيم بن حمود بن إبراهيم [3] فلتراجع ، من أبرز كتبه:

1- مجالس في تفسير قول الله تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ [سورة آل عمران:164].

2- إتحاف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك.

3- سلوة الكئيب في وفاة الحبيب ﷺ.

سابعًا: وفاته: توفي – رحمه الله – في ربيع الثاني، سنة 842 هـ .

(1) الغزي، أبو البركات محمد بن أحمد بن عبد الله (1421ه-2000م.) بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين، تحقيق: أبو يحيى عبد الله الكندري، بيروت: دار ابن حزم، الطبعة 1 (ص:49).

(2) ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، المجمع المؤسس، قال فيه (3/ 285) : "أجاز لنا غير مرة".

(3) د. إبراهيم بن حمود بن إبراهيم (1439هـ – 2018م)، إتحاف السالك برواة الموطأ عن الإمام مالك، تونس: دار المقتبس، الطبعة الأولى.

المطلب الثاني

أقسام علوم القرآن عند ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي

قبل أن أشرع في ذِكر تقسمات علوم القرآن عند ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي، أُعرِّف بعلوم القرآن باختصار، فأقول:

لم يتعرض المتقدمون من العلماء لوضع حدٍ لعلوم القرآن، أما المعاصرين؛ فإنهم عرَّفوه بعدة تعريفات، منها: تعريف الزرقاني: "مباحث تتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، وكتابته، وقراءته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ودفع الشبه عنه ونحو ذلك"[(1)].

وهذا التعريف تكرر عند أبي شهبة، ومناع القطان، وصبحي الصالح، بتغيير يسير؛ كتغيير مباحث إلى مسائل، أو علم، ونحو ذلك[(2)].

وهو لا يوافق شروط التعريف عند المناطقة؛ بأن يكون جامعًا مانعًا، ويكفي في ذلك التمثيل فيه.

ولعل أضبط تعريف له، هو:" **علم يضم أبحاثًا كُلِّيَّة تتصل بالقرآن الكريم من نواحٍ شتى، يمكن اعتبار كل منها عِلمًا متميزًا**"[(3)].

'وجمعه، وكتابته، وتفسيره، وإعجازه وناسخه ومنسوخه، وغير ذلك"[(4)].

أقسام علوم القرآن عند ابن ناصر الدِّين : قال رحمه الله :" وعلومه كثيرة الأنواع، ترجع إلى ثلاثة أقسام[(5)]:

أحدها: تلاوته بالإتقان، وتصحيح الإعراب، وحسن الأداء، ومنه الواجب والمستحب، فمن الواجب: تصحيح التلاوة من اللَّحن الجلّي، مثل تغيير الإعراب، لاسيَّما إذا غيَّر اللَّحنُ المعنى، وكإخراج الحرف من غير مخرجه، وربما تغير به المعنى، وكذلك عدم أصل التشديد.

---

(1) الزُّرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان للزرقاني (20/1). مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة 3، د.ت.

(2) أبو شهبة، محمد بن محمد بن سويلم (1423 هـ – 2003 م) المدخل لدراسة القرآن، القاهرة: مكتبه السنة، الطبعة 2 (ص:25)، مناع القطان (1421هـ– 2000م) مباحث في علوم القرآن، الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة 3 (ص:12)، صبحي الصالح (2000م) مباحث في علوم القرآن، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة 24، (ص:10).

(3) عتر، د. حسن ضياء الدين عتر (1408ه – 1987م) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، لابن الجوزي، تحقيق: حسن ضياء الدين عتر، بيروت: دار البشائر الإسلامية، الطبعة1، (ص:71).

(4) عتر، د. نور الدّين، محمد عِتر الحلبي (1414هـ – 1993م) علوم القرآن، دمشق: مطبعة الصباح، الطبعة1، (ص:8).

(5) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد (1431هـ–2010م) مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } ، تحقيق: محمد عوامة، جدة: دار المنهاج، الطبعة 2، (ص: 256 و 291).

ومن المستحب: تصحيح التلاوة من اللَّحن الخفِي، كترك المد المتفق عليه، وأحكام النون الساكنة والتنوين، ونحو ذلك من الترقيق والتفخيم، فهذا أحد أقسام علوم القرآن: معرفة تلاوته، المشار إليها بقوله تعالى: { يتلوا عليهم ءايتك } [سورة البقرة:129].

والثاني: علم وجوه قراءاته، وما صح منها، كالسبعة المشهورة وغيرها، وما لا تصح، كالشاذ وغيره؛ وما يتعلق بذلك.

والثالث: معرفة تفسيره، واستنباط أحكامه، ومعانيه، وبيان غريبه، وحِكَمه، وضروب نظْمه، وما فيه، وهذا القسم أجَّل الأقسام، إذ به تتضح شرائع الدِّين ، من توحيد الله رب العالمين، ومعرفة الرُّسل الكرام، وبيان ما فيه من الأحكام، والفرق بين الحلال والحرام، والترغيب في الخيرات، والترهيب من المخالفات، إلى غير ذلك مما لا يستغنى عن عِلمه، ولا يَسَع مُسلمًا جهله، مع وجود عقله وفهمه.، كما هو من شروط المجتهد".وقال فيه أيضًا[1] : " ومأخذ علومه من وجوه: فباعتبار المراد من اللفظ: يؤخذ –كما قدمناه قبل– من منطوقه، أو مفهومه.

وباعتبار دلالة اللفظ على الطلب: يؤخذ من أوامره، أو نواهيه، أو العام المطلق، أو العام المقيد ببعض صفاته، أو من الخاص. وباعتبار كيفية الدَّلالة من خفاء، أو جلاء: يؤخذ من مجمله أو مبينه. وباعتبار الدَّلالة على ارتفاع حكمٍ، وبقاء آخر: يؤخذ من ناسخه ومنسوخه". ثم إنه في النوع الثالث أيضًا، نقل كلام الإمام الحليمي بطوله، دون أن يُعلِّق عليه، فقال[2]: " وعلوم الكتاب كثيرة:

1- منها: علم ألفاظه وما أريد به، وهذا هو الذي يقال له التفسير، ويدخل في هذا القسم ما اختلف فيه من القراءات ووجوهها.
2- ومنها: علم المكي والمدني منها، وأسباب التنزيل ومن نزل فيه، ومن نزل لأجله.
3- ومنها: علم المحاجات فيه، فقد أودعه الله تعالى من البراهين والحجج ما إذا عرفت حق المعرفة لم يحتج معها ولا وراءها إلى غيرها.
4- ومنها: علم الأحكام المبينة فيه جملة وتفصيلاً، وتمييز الثابت منها والزائل.
5- ومنها: علم الأمثال المضروبة فيه، والوقوف على ما هي أمثالٌ له ودلائل عليه.
6- ومنها: علم الوعد والوعيد، والمدح والذم.

(1) المرجع السابق، (ص:322).
(2) المرجع السابق، (ص:357).

7- ومنها: علم القصص، وأنباء الأولين المذكورة للاعتبار بها، وتسلية ﷺ وتصبيره.

8- ومنها: علم ما جاء من الحث على الاعتصام بالله تعالى، والالتجاء في النوائب إليه، والدَّلالة على وجوه الاحتراس من شياطين الإنس والجن.

9- ومنها: علم الإخبار بالعواقب، تبشيراً للنبي ﷺ وتثبيتاً للمؤمنين.

10- ومنها: علم إعجازه، ومباينته في نظمه نظم الشعراء، أو خطب الخطباء، وبلاغة الكُتَّاب البُلَغاء، وما شيءٌ من هذه العلوم، إلا ويوجد منه في السُنة مثل ما يوجد في الكتاب، إلا الإعجاز؛ فإنه يَخُص القرآن، وفيها -أي السنة- زياداتٌ كثيرة؛ لأن الله تعالى جعل نبيه ﷺ مُبيّنًا للكتاب، ومُعرِّفًا للناس منه ما لا يدركونه إلا بتبيانه، وأوحى إليه كثيراً مما لا ذِكر له في الكتاب، فَبلَّغَه عنه، إلا أن ما يُنتَهى من سنته إلينا، فقد تأتينا متواترة، وقد تأتينا مستفيضة غير متواترة، وقد تأتينا من قِبَل الآحاد، قاله الحليمي في كتابه "المنهاج"[1].

المبحث الثاني

علوم القرآن عند ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي

المطلب الأول

نزول القرآن وما يتعلق به.

المسألة الأولى: كيفية نزوله:

هذه المسألة اختلف فيها العلماء قديمًا، وحديثًا، والخلاف فيها مبنيٌ على صحة الاستدلال أولًا، وعلى ما يترتب على كل قولٍ من الأقوال، ثانيًا.

وقد ذكر ذكر ابن ناصر الدِّين[2] رحمه الله ، أن المراد بنزول القرآن أحد ثلاث معان:

"**أحدها:** وهو المشهور -وعليه الجمهور[3]- أنه نزل في ليلة القدر جملةً واحدة إلى سماء الدنيا، ثم نزل على النبي ﷺ مفرقاً".

(1) الحليمي، الحسين بن الحسن بن محمد الجرجاني (1399ه- 1979م) المنهاج في شعب الإيمان، تحقيق: حلمي محمد فودة، بيروت: دار الفكر، الطبعة1 (187/2).

(2) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } (ص:165-167).

(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن (/132)، ولمزيد إطلاع، انظر: السيوطي، الاتقان في علوم القرآن (142/1)، ابن عقيلة المكلي، الزيادة والأحسان في علوم القرآن (1، (ص:152، والغريب أن القرطبي حكى الإجماع على هذا القول، انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (299/2).

استدلالًا بالأثر المشهور عن ابن عباس – رضي الله عنه– قال:" أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، في ليلة القدر، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة[1]، وقرأ: {وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً } [سورة الإسراء:106]، الآية"[2].

وقال رحمه الله في موطن آخر[3]: " وهي الليلة المباركة عند الجمهور المشار إليها بقوله تعالى: **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ }** [سورة الدخان:3]، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنه ما يدل على ذلك، جمعاً بين الآيات الثلاث، وبين ما عُلم نزوله في غير شهر رمضان، وهو ما خرجه الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في كتابه "أسماء الله تعالى وصفاته الواردة في الكتاب والسنة" من حديث السُّدِّي، عن محمد بن أبي المجالد، عن مِقْسم، عن ابن عباس رضي الله عنه ، أنه سأله عطية بن الأسود فقال: إنه قد وقع في قلبي الشك، قول الله عز وجل: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ وقوله تعالى: {إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ }** [سورة القدر]، وقوله تعالى: **{إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ }** وقد أُنزل في شوال، وذي القعدة، وذي الحجة –يعني وغير ذلك من الأشهر– فقال ابن عباس –رضي الله عنه –: إنه أنزل في رمضان، وهي ليلة القدر، وفي ليلة مباركة، جملةً واحدةً، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلاً في الشهور والأيام"[4]ومعنى رِسْلًا[5]: أي رِفْقًا، وقوله:"على مواقع النجوم": أي على مِثل مَساقط النجوم، يتلو بعضه بعضًا على تَؤدة ورفق".

والقول الثاني: أن القرآن كان ينزل منه من اللوح المحفوظ في ليلة القدر من كل سنة قَدْرَ ما يُنزله الله عز وجل على رسوله ﷺ في تلك السنة، فنزوله من اللوح المحفوظ في عشرين ليلةً، كل ليلة منها كانت ليلة القدر، ونزل على النبي ﷺ في عشرين سنة".

---

(1) هذه المدة بدون فترة الوحي، ومدتها ثلاث سنين، ثم تواتر الوحي وتتابع، فكانت مدة تواتره وتتابعه بمكة عشر سنين من غير فترة، انظر: فتح الباري (27/1)، 4/9، وانظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (354/4).

(2) النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، سُنن النسائي، (رقم:7989 و7990)، ولمزيد تخريج له، انظر: أبو عبيد، القاسم بن سلام، فضائل القرآن، (ص:367–368)، الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، المستدرك على الصحيحين (2/ 222، 368)، الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان، 15/ 119)، والبيهقي في السنن 4/ 306، وابن الضريس في فضائل القرآن (رقم: 116، 117)، قال الحاكم: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وصححه ابن كثير في مقدمة تفسيره، وابن حجر في فتح الباري (4/9).

(3) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: {لقد من الله على المؤمنين}، (ص:248).

(4) البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (1413هـ – 1993م)، الأسماء والصفات، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، جدة: مكتبة السوادي، الطبعة الأولى (574/1).

(5) أبو شامة: عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، (: 1395 هـ – 1975م) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تحقيق: طيار آلتي قولاج، بيروت : دار صادر، د.ط (ص:11).

واستدل بقول مقاتل بن سليمان[1] قال عن القرآن: "أنزله الله عز وجل من اللوح المحفوظ إلى السفرة –وهم الكتبة من الملائكة– في سماء الدنيا، فكان ينزل ليلة القدر من الوحي على قدر ما ينزل به جبريل على النبي ﷺ في السنة كلها إلى مثلها من القابل، حتى نزل القرآن كله في ليلة القدر، ونزل به جبريل عليه السلام على محمد ﷺ في عشرين سنة"[2].

والقول الثالث: أن الله عز وجل ابتدأ بإنزال القرآن في ليلة القدر، قاله الشعبي"[3].

ثم ساق بسنده قول داود بن أبي هند قال: قلت للشعبي: قوله: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ }** [سورة البقرة:185] أما نزل عليه القرآن في سائر السنة إلا في شهر رمضان؟

قال: بلى، ولكن جبريل عليه السلام كان يُعارض محمدًا بما ﷺ ينزل عليه في سائر السنة في شهر رمضان"[4].

فيكون المعنى على قول الشعبي: أن أول نزوله كان في شهر رمضان، فيكون الإطلاق بالإنزال في شهر رمضان؛ للابتداء، أو من باب إطلاق الجزء على الكل.

ثم قال – رحمه الله – : "وجوز بعضهم[5] في قوله تعالى: **{شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ }** –مع العلم بنزوله أيضاً في غير شهر رمضان–: أن يكون أنزل جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في شهر رمضان، وأول نزوله إلى الأرض على النبي ﷺ كان في شهر رمضان، وعرضه مع جبريل عليه السلام في شهر رمضان".

---

(1) مقاتل، بن سليمان البلخي (1423هـ) تفسير مقاتل، تحقيق: عبد الله شحاته، بيروت: دار إحياء التراث، الأولى (817/3)، وهو مروي عن ابن عباس رض من طريق الضّحاك، عزاه في الدر المنثور (543/5) لابن أبي حاتم، وابن الأنباري في المصاحف، وذكره ابن كثير في تفسيره (544/7)، ورواية الضّحّاك لا تُعارض الروايات الصحيحة، عن ابن عباس في نزول القرآن جملة.

(2) هذا القول يُفهم منه أن جبريل لم يتلق القرآن من الله -عَزَّ شأنه- وهو خلاف قول الله تعالى: : { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ [سورة النحل:102]، { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ، } [سورة التكوير:19-21]، قال ابن العربي: "وهذا باطلٌ؛ ليس بين جبريل، وبين الله واسطة، ولا بين جبريل ومحمد- صلى الله عليهما- واسطة". انظر: ابن العربي، أبو بكر، محمد بن عبد الله، أحكام القرآن (427/4).

(3) أبو عُبيد، القاسم بن سلام، فضائل القرآن، (1415 هـ -1995)، تحقيق: مروان العطية، وآخرون، دمشق - بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الأولى، (ص:68).

(4) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، بدء الوحي، باب: كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ (رقم:4997)، عن ابن عباس : "وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن"، قال الحافظ في الفتح (455/7) :"والمعارضة مفاعلة من الجانبين، كأن كلا منهما كان تارة يقرأ، والاخر يستمع".

(5) ابن حجر، أحمد بن علي، فتح الباري (31/1)، حيث قال:" وفيه إشارة إلى أن ابتداء نزول القرآن كان في شهر رمضان؛ لأن نزوله إلى السماء الدنيا جملة واحدة كان في رمضان، كما ثبت من حديث ابن عباس، فكان جبريل يتعاهده في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين، كما ثبت في الصحيح عن فاطمة ~".وقد كرر هذا المعنى في أكثر من موطن في كتابه، نحو (27/1)، (56/12).

ولم يُرجِّح من هذه الأقوال شيئًا؛ لكن سياق كلامه، كما سيأتي في المسألة التالية، يُفهم منه ترجيحه لقول الجمهور، وهو القول الأول.

وعند النظر في هذه الأقوال، وتطبيق معايير البحث العلمي عليها، نجدها ترجع إلى قولين يصح اعتبارهما، وهما: قول الجمهور، وقول الشعبي، وأما قول مُقاتل؛ فقولٌ مُرسلٌ لا دليل عليه، ويترتب عليه معنىً فاسدًا ذكرته في التعليق على قوله.

أما قول ابن عباس – رضي الله عنه– فهو ثابتٌ عنه، ومنقولٌ بطرق صحيحة، كما بينته في التعليق عليه، ومن جهة صحة الاحتجاج به؛ فهو حُجةٌ في نفسه من جهة أن القائل به صحابيٌ، لا يُمكن أن يتكلم في أمر غيبي بدون أن يكون قد سمعه من النبي ﷺ[1]، وبعض الأصوليين يقول: قول الصحابي فيما لا يدخله القياس، له حُكم الرفع[2]، وبعضهم[3] يقول: قول الصحابي فيما لا يُعلم له مخالف؛ له حكم المرفوع.

ومن جهة موافقة هذا القول لأدلة الشريعة الأخرى؛ فهو موافق لها؛ فإن الله عز وجل ذكر أنه أنزل القرآن في شهر رمضان، وذكر أنه أنزله في ليلةٍ مباركة، وهي ليلة القدر، وسبق الإشارة إلى هذه الآيات.

ثم ذكر سبحانه أنه نزَّل القرآن مُفرقًا، لا كما اقترح المشركون في قوله تعالى: **{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً }** [سورة الفرقان:32]، فقوله: {كَذَلِكَ} : "أي كذلك الإنزال مفرقاً بحسب الوقائع أنزلناه، لا جملة كما اقترحوا"[4]، وكان هذا هو المُعاين في نزوله، أنه ينزل طيلة بعثة الرسول ﷺ؛ فاقتضى الجمع بين هذه النصوص: أن يكون له تَنَزُّلان[5].

(1) هذا الحكم والإطلاق مشهورٌ في كتب أهل العلم، فيذكرونه في التفسير، عند قول الصحابي في أسباب النزول، ويذكره المحدثون عند الكلام على أقوال الصحابة، وهل لها حكم المرفوع، أم لا؟ وكذا الحال بالنسبة للأصوليين، ويذكره علماء السُنة في تقرير بعض المسائل العقدية، 340/13، ومن الأمثلة، قول ابن تيمية: " وقد تنازع العلماء في قول الصاحب: نزلت الآية في كذا، هل يجري مجرى المُسند، كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله، أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند، فالبُخَارِيّ يُدْخله في المسند، وغيره لا يُدْخله في المسند، وأكثر المساند على هذا الاصطلاح، كمسند أحمد، وغيره؛ بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه، فإنهم كلهم يُدخِلون مثل هذا في المسند"، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مقدمة في أصول التفسير، ضمن مجموع الفتاوى (340/13)، انظر لمزيد بيان: السخاوي، فتح المغيث بشرح الفية الحديث (162/1).

(2) المجد ابن تيمية، مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن تيمية، المسودة في أصول الفقه، (ص:38، وعزى القول به لأحمد، وأبي حنيفة، وأما مالك، فقد ذكر ابن العربي أنه مذهب مالك، ابن العربي، محمد بن عبد الله المعافري، القبس شرح موطأ مالك بن أنس (207/1)، قال السخاوي:" وهو ظاهر كلام الشافعي في الجديد"، السخاوي، فتح المغيث بشرح الفية الحديث (162/1)، فهو قول الأئمة الأربعة على هذا.

(3) ابن قدمة، عبد الله بن أحمد (1423هـ -2002م) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، بيروت: مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة 2 (466/1)، قال:" قول الصحابي إذا لم يظهر له مخالف، فروي: أنه حجة يقدم على القياس، ويخص به العموم، وهو قول مالك، والشافعي في القديم، وبعض الحنفية.

(4) الشنقيطي، محمد الأمين، بن محمد المختار الجكني، (1400هـ -1979م) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تحقيق وتتمة: عطية محمد سالم، مطبعة المدني، الطبعة الثانية (161/4).

(5) ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (46/17)، وكذلك: السخاوي، علم الدين، جمال القراء وكمال الاقراء (152/1)، القرطبي، الجامع لاحكام القرآن (299/2)، الزركشي، البرهان في علوم القرآن (163/1)، ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، فتح الباري (4/9).

لكن بعض العلماء ردوا هذا القول، لا لعدم صحة الاستدلال به؛ بل لما يترتب عليه – في نظرهم –كإنكار صفة الكلام لله تعالى[1]، وهذا بابٌ لو فُتح؛ أفضى إلى إنكار جُملة من الآثار، بل حتى الأحاديث الصحيحة؛ لاحتجاج المُخالف بها، وهذا منهجٌ غير منضبط، ويُفضي إلى عدم الاعتداد بصحيح الآثار، ويُسلِّط مُنْكِرةُ الأحاديث الصحيحة؛ على إنكار أي حديث يرون أنه يتعارض مع القرآن الكريم –كما هو الواقع اليوم– رغم أن التعارض هو في عقولهم فقط، وقد ذكر ابن القيم في كتابه " الصواعق المُرسلة" نحو هذا الكلام، في خطأ من يلجأ إلى التأويل في موضع؛ فيُلزم به في كل موضع؛ إذ لا فرق بين التأويل مرة، والتأويل مئة مرة، ويبقى قول ابن عباس، وترجيح جمهور العلماء هو الأقوى، والله أعلم.

المسألة الثانية: حِكمة نزوله جملة:

قال –رحمه الله– [2]: " وفي إنزال القرآن جملةً واحدة إلى سماء الدنيا، ثم في إنزاله مفرقاً –كما تقدم:

- تعظيمٌ لأمر القرآن، وأمر من أُنزل عليه ذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب، المنزل على خاتم النبيين، لأشرف الأمم، قد قربه الله إليهم لينزله عليهم، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت وصوله إليهم مفرقاً بحسب الوقائع لهبط به إلى الأرض جملةً كسائر الكتب المنزلة قبله[3]، ولكن الله تعالى باين بينه وبينها، فجمع لنبينا ﷺ الأمرين: إنزاله جملةً، ثم إنزاله مفرقاً.
- وفيه أيضاً إشارة إلى زيادة شرف لنبينا ﷺ؛ لأن كل رسول أنزل الله عليه كتابه جملةً واحدة، كما أنزل القرآن جملةً واحدة إلى سماء الدنيا، فشارك نبينا ﷺ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وامتاز عليهم بإنزال القرآن أيضاً عليه مفرقاً".

المسألة الثالثة: فوائد نزول القرآن جُملة:

قال –رحمه الله – :[4]" ومن فائدته:

(1) عبد القادر شيبة الحمد (1432هـ-2011م)، تهذيب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به من الأباطيل وردىء الأقاويل، دمشق: مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الثانية (1/409-410)، ونقل عن العلامة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي الديار السعودية: "أن هذا القول دسيسة اعتزالية؛ لأنكار أن الله تكلم بالقرآن ...".

(2) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لقد من الله على المؤمنين}(ص:168).

(3) تعرض كثير من العلماء لهذه المسألة عند قول الله تعالى:{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً } «سورة الفرقان:32، وقال السيوطي، جلال الدّين، الاتقان في علوم القرآن (1/152) :" يكاد يكون إجماعًا"، وهي مسألة من مُلح العلم.

(4) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لقد من الله على المؤمنين }، (ص:169).

1- إعلام الملائكة بقرب ظهور الأمة المحمدية، وإرسال نبيهم خاتم الأنبياء الذي ينزل عليه هذا القرآن، كما أعلم الله الملائكة بخلق آدم عليه الصلاة والسلام قبل إيجاده، فقال تعالى: {إني جاعل في الأرض خليفة}.

2- وفي إنزال القرآن جملةً ثم نزل مفرقاً من الفوائد أيضاً: ما أشار الله عز وجل إليه بقوله تعالى جواباً عن مقالة الكفار التي أخبر الله تعالى بها في قوله عز وجل: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } [سورة الفرقان:32]، فقال تعالى في الجواب: { كَذَلِكَ } أي نزلناه مفرقاً { لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً } أي: لنقوي به قلبك؛ فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة، كان أقوى للقلب، وأشد عنايةً بالمرسل إليه، ويستلزم ذلك:

3- كثرة نزول جبريل إليه، وسلامه عليه، وتجديد العهد به، وبما معه من الرسالة الواردة عن ذلك الجناب العظيم الإلهي، فيحدث له بذلك من الخيرات والمسرات، ما تضيق عن تفصيله العبارات، ولهذا -والله أعلم- كان رسول الله ﷺ إذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة[1]".

المسألة الرابعة: مُدة تنزل القرآن:

قال – رحمه الله – : "واختلف: كم كان بين نزول أول القرآن وآخره على ثلاثة أقوال:

أحدها -وتقدم عن ابن عباس وغيره-: أنه عشرون سنةً، وعلى هذا الأكثر.

والثاني: أنه ثلاث وعشرون سنةً، وهو الأظهر لي.

والثالث: أنه خمس وعشرون سنة.

أما مدة نزوله بالمدينة فلا خلاف أنها كانت عشر سنين، وإنما الخلاف فيما نزل بمكة بعد البعثة"، أما القول الأول، فالذي يظهر أن المراد بقول ابن عباس رحمه الله بعد طرح فتور الوحي[2]، وهذا ما رجَّحه الحافظ في الفتح، وأما القول الثالث، فقد يكون بإضافة إرهاصات النبوة، ومنها الرؤيا الصادقة في النوم، وستأتي الإشارة لبعض هذه المسائل تِبَاعًا.

---

(1) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، باب كان جبريل يعرض القرآن على النبي ٢ (رقم:«4711، حديث ابن عباس رضي الله عنه قال:" كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون في شهر رمضان؛ لأن جبريل كان يلقاه في كل ليلة في شهر رمضان، حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن، فإذا لقيه جبريل؛ كان أجود بالخير من الريح المرسلة".

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب: كيف بدء الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، (رقم:3) من حديث ابن شهاب، عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنهاأنها قالت:" أول ما بُدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح؛ ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك...".

المسألة الخامسة: أول وآخر ما نزل من القرآن:

قال – رحمه الله – : "وأول ما نزل بمكة –بل مطلقاً– أول سورة: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } نزلت بغار حراء، وهذا أول مرة نزل فيها جبريل عليه السلام على النبي ﷺ بالوحي[1]، ثم نزل بعد ذلك: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنذِرْ } وقيل: أول ما نزل: {{يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ }}[2]وقيل: أول ما نزل من القرآن: فاتحة الكتاب، ويروى في ذلك عن علي بن أبي طالب[3] ﷺ، ونصر هذا القول؛ لأن النبي ﷺ أقام بمكة بعد البعثة على المشهور ثلاث عشرة سنة، فما يظن أنه في هذه المدة كان يصلي بغير فاتحة الكتاب. والله أعلم".

ورواية جابر ﷺ تُظهر: إنه لا يتحدث عن أول الوحي، وإنما يتحدث عن أول ما نزل بعد فتور الوحي، ويدل عليه قوله ﷺ: فإذا الملك الذي جاءني بحراء فهذا يثبت إن هذهِ القصة متأخرة عن قصة حراء التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾[4] ومن العلماء من حاول الجمع بين القولين، بإن أول ما نزل للنبوة ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** ﴾، وأول ما نزل للرسالة ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ** ﴾[5].

المسألة السادسة: أخر ما نزل من القرآن:

قال –رحمه الله– : "وأما آخر ما نزل من القرآن من آياته: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ الآية، كما رويناه في كتاب "فضائل القرآن" لأبي عبيد قال: حدثنا حجاج، عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس رضي الله عنه : "آخر آية أنزلت من القرآن هي: {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ }"[6] (سورة البقرة:281)، قال: "زعموا أن رسول الله ﷺ مكث بعدها تسع ليالٍ. وبدى به يوم السبت، ومات يوم الاثنين ﷺ "[7].

---

(1) المرجع السابق، عن عائشة ~، وفيه: ثم يرجع إلى خديجة ~ فيتزودَ لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة، ثم أرسلني فقال: { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** } [سورة العلق]، فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زمّلوني، زمّلوني، حتى ذهب عنه الروع".

(2) مسلم، أبو الحُسين، مسلم بن الحجاج، القُشيري، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بدء الوحي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم : (رقم:160، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحدّث عن فترة الوحي، فقال في حديثه: فبينما أنا أمشي سمعت صوتاً من السماء، فرفعت رأسي، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجئثت منه رعباً، فرجعت فقلت: زمّلوني، زمّلوني، فدثّروني، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

(3) الواحدي، أسباب النزول، (ص:3)، قال البيهقي، دلائل النبوة (159/2): " منقطع ، فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعدما نزل عليه { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ** } «سورة العلق»، و [سورة العلق]، و {يِ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } [سورة المدثر].

(4) السيوطي، جلال الدّين، الاتقان في علوم القرآن (97/1).

(5) ابن حجر، علي بن أحمد، فتح الباري (877/8).

(6) النسائي، السنن الكبرى، باب قوله تعالى: { وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ } «سورة البقرة:281].(رقم:11057، 11058)، ولمزيد إشارة لمن أخرجه: ابن المنذر، محمد بن إبراهيم، تفسير ابن المنذر، (ص: 64)، الطبراني، المعجم الكبير، (رقم:12040)، البيهقي، دلائل النبوة (137/7).

(7) تفسير ابن أبي حاتم (554/2)، (رقم:2944).

وقيل: آخر آية نزلت آيات الربا[1]، وهذا داخلٌ في القول الأول، لأن آخر آيات الربا {وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ } الآية.

قال أبو عبيد –فيما رُوِّيناه عنه–: حدثنا عبد الله بن صالح، وابن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: آخر القرآن عهداً بالعرش آية الربا وآية الدِّين[2].

وقيل آخر آية نزلت آية الكلالة: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلاَلَةِ } [سورة النساء:176]. إلى آخرها.

وقيل: آخر آية نزلت: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ } [سورة التوبة:128]، إلى آخر الآيتين.

وكذلك اختلف في آخر سورة نزلت، فصح عن البراء بن عازب ﷺ قال: "آخر سورة نزلت: براءة"، وروي ذلك عن أبي الشعثاء والجمهور.

وقيل: آخر سورة نزلت المائدة، وقد جاء حديثٌ مرفوع بذلك أن النبي ﷺ قرأ سورة المائدة في حجة الوداع وقال: يا أيها الناس إن آخر القرآن نزولاً سورة المائدة، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها[3]".

المطلب الثاني

أسباب النزول

ذكر ابن ناصر الدِّين في هذا المطلب مسألتان:

أولهما: أقسام القرآن باعتبار أسباب النزول:

وثانيهما: سبب نزول قوله تعالى: { إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [سورة آل عمران:164].

أقسام القرآن باعتبار أسباب النزول:

قال – رحمه الله–[4]:" فكان نزوله على قسمين:

أحدهما: ماله سببٌ نزل لأجله، والثاني: ما نزل بغير سبب ظاهر.

(1) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله : 427، قال في الفتح:" ومراد ابن عباس ƒ بأية الربا آية الباب { اتَّقُواْ }، وسماها آية الربا؛ لأنها جاءت في ختامها معطوفة عليها، فدخلت في حكمها ووصفها" (33/6).

(2) أبو عُبيد، القاسم بن سلام، فضائل القرآن، (ص:369).

(3) تفسير ابن أبي حاتم (554/2)، (رقم: 2944).

(4) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: {صخ صم ضج ضح ضخ} (ص:232).

وقد صنف في القسم الأول، ومن ذلك كتاب أبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متويه النيسابوري الواحدي رحمه الله ".

وحتى تنضبط أسباب النزول، ويتم التمييز بينها وبين ما نزل ابتداءً؛ اجتهد العلماء في وضع قيود واحترازات في تعريف أسباب النزول، فنذكر تعريف أسباب النزول، ثم نُبين قيود، واحترازات التعريف[1].

تعريف أسباب النزول:

أول من وقفت عليه عرَّف بأسباب النزول، هو السيوطي، فقال: "والذي يتحرر في أسباب النزول: أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه"[2]، والمُراد في كلامه واضح، أنه ما نزلت الآية بشأنه أيام وقوعه، وسواء كانت آيةٌ، أو آيات، ولذا شرحه الزرقاني بقوله: "ما نزلت الآية، أو الآيات، متحدثة عنه، أو مبيّنة لحكمهِ أيام وقوعه"[3].

قيود، واحترازات التعريف: أولها: الارتباط بين السبب، وبين الآيات، ولذلك قيل: مُتحدِّثه عنه، أو مُبيِّنة لحكمه، وثانيهما: أن يكون السبب، والمُسبب متزامنان، أي في وقتٍ مُتقارب؛ لأن السبب سابقٌ لنزول القرآن، فقد يطول الوقت، وقد يقصر، والحكم لله تعالى.

إلا أن لابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي رحمه الله رأي فيما يُطلق عليه أسباب النزول، يُفهم من ذِكره سبب نزول قوله تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ }، وقد صرّح بأن السبب غامض، ولذا لم يذكره الواحدي، ولا غيره من المفسرين والمؤلفين في أسباب النزول، لنقرأ كلامه، ثم نُعلِّق عليه.

سبب نزول قوله تعالى: **{ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ }**

قال –رحمه الله– : "وهذه الآية الشريفة لها سببٌ في نزولها، وهو ظاهر، لكنه غامض، ولغموضه لم أر أحداً ذكره ممن صنف في أسباب نزول القرآن، ومنهم أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري لم يذكره في كتابه "أسباب النزول".

---

(1) انظر: نور الدين عتر، علوم القرآن الكريم، (ص:46).

(2) السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر (1394هـ –1974 م) الإتقان في علوم القرآن، د.ط، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب (115/1).

(3) الزرقاني، محمد عبد العظيم (د.ت) مناهل العرفان، الطبعة الثالثة، مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، (106/1).

والسبب في نزولها: إعلام الله تعالى الأمة بإجابته دعوة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث قال فيما أخبر الله تعالى عنه: **{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ }** [سورة البقرة:129].

فاستجاب الله تعالى هذه الدعوة، وبعث هذا الرسول كما دعا إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأعلم الله تعالى هذه الأمة بإجابة الدعوة المشار إليها فقال تعالى: **{لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ }** الآية [سورة آل عمران:164].

وقد أشار النبي ﷺ إلى إجابة هذه الدعوة الشريفة فقال –فيما خرجه أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير من حديث أبي أمامة ﷺ قال: قيل يا رسول الله ما كان بدء أمرك؟– فقال: دعوة أبي إبراهيم، وبشر بي عيسى، ورأت أمي أنه خرج منها نورٌ أضاءت له قصور الشام. وللحديث طرق خرجتها في كتابي جامع الآثار"[(1)].

فنلاحظ هنا: أن ابن ناصر الدِّين – رحمه الله تعالى– جعل سبب نزول الآية: دعوة إبراهيم عليه السلام ابتداءً، ثم قَيَّد اللفظ بأن السبب: إعلام الله الأمة عن إجابته دعوة إبراهيم ، فإذا الدعوة الإبراهيمية، سببٌ لبعثة النبي ﷺ، والآية تُخبر بذلك، والفترة بين الدعوة، وبعثة النبي ﷺ قرونٌ من الزمان، كما أن البعثة سابقةٌ للآية قطعًا، وهذا رأي أُراه ضعيفًا؛ لأن الإعلام ليس سببًا، وإنما إخبارٌ عن السبب، فلولا الإعلام والإخبار، لم يكن هناك فرقًا بين هذه الآية، وبين جميع آي القرآن في هذا؛ لأن كل آي القرآن إنما نزل بناءً على البعثة.

المطب الثالث

ترتيب الآيات والسور

يرى الحافظ ابن ناصر الدِّين الدمشقي: أن ترتيب الآيات، والسور كله كان على عهد النبي ﷺ وبأمره.

قال– رحمه الله – : "وترتيب الآيات والسور كان في عهد النبي ﷺ بأمره، روينا من حديث ابن عباس رضي الله عنه عن عثمان ﷺ قال: "كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان، وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ((ضعوا هذه الآيات في السورة التي

(1) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ** (ص:307).

يذكر فيها كذا وكذا))، وإذا نزلت عليه الآية يقول: ((ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا))، خرجه الترمذي في "جامعه" وحسنه، والحاكم في "مستدركه" وصححه[1].

وراويه عثمان بن عفان ﷺ كان أحد كُتَّاب الوحي للنبي ﷺ، فكُتَّابه من الصحابة رضي الله عنهم : الخلفاء الأربعة، وأبي بن كعب – وهو أول من كتب للنبي ﷺ – وزيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان –وهما كانا مداومين على الكتابة– وحنظلة بن الربيع الأسيدي، وخالد بن العاصي بن هشام بن المغيرة، وأبان بن سعيد بن العاصي بن أمية، والعلاء بن عبد الله الحضرمي، والمشهور من الكتاب، المذكورون قبله.

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي –رحمة الله تعالى–: "واعلم أن القرآن كان مجموعاً كله في صدور الرجال أيام حياة رسول ﷺ، ومؤلَّفاً هذا التأليف الذي نشاهده ونقرؤه، إلا سورة براءة، فإنها كانت من آخر ما نزل من القرآن، ولم يبين رسول الله ﷺ لأصحابه موضعها من التأليف، حتى خرج من الدنيا، فقرنها الصحابة بالأنفال[2]، وبيان ذلك في حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قلت لعثمان ﷺ: "ما حملكم على أن عمدتم إلى براءة –وهي من المئين– وإلى الأنفال–وهي من المثاني– فقرنتم بينهما، ولم تجعلوا بينهما سطراً –في–: بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطول؟

فقال عثمان: إن رسول ﷺ كان ينزل عليه من السور التي يذكر فيها كذا وكذا، فإذا أنزلت عليه الآيات يقول: ضعوا هذه الآيات في موضع كذا وكذا، فإذا نزلت عليه السورة يقول: ضعوا هذه في موضع كذا وكذا، وكانت الأنفال أول ما أنزل عليه بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها تشبه قصتها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين أمرها، فظننت أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أجعل بينهما سطراً فيه بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها في السبع الطول".

---

(1) الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة (1998م) الجامع الكبير، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة التوبة، (رقم:3086)، د.ط، تحقيق: بشار عواد معروف، بيروت: دار الغرب الإسلامي، قال أبو عيسى: "هذا حديث حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث عوف، عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس ﷺ"، ورواه أبو داود، (رقم:2222)، والحاكم في المستدرك (221/2و330)، وصحّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (رقم:1074)، كلهم من طريق عوف عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس به، وهو كذا في مسند أحمد (رقم:399)، وبالغ أحمد شاكر في تعليقه على المُسند، وقال: لا أصل له، رغم أن يزيد الفارسي مقبول الحديث عند ابن حجر، كما في التقريب (ص:1085) ط. العاصمة، والعجب مما نقله أحمد شاكر عن شيخه محمد رضا، قوله: "فلا يصح أن يكون ما انفرد به معتبراً في ترتيب القرآن الذي طلب فيه التواتر". وقال في الموضع الثاني: "فمثل هذا الرجل لا يصح أن تكون روايته التي انفرد بها مما يؤخذ به في ترتيب القرآن المتواتر"، فلا أعلم أحدًا اشترط في غير لفظ القرآن التواتر، وهذا كلام الأئمة في تسمية سور القرآن، وفي أسباب النزول، وتعيين أماكن النزول، بل وفي قراءات القرآن، اشترطوا فيها صحة الإسناد، مع موافقة العربية، ولو بوجه، وموافقة رسم المصحف، كما في المطلب السابق، ولم يشترط أحدٌ منهم التواتر في شيء من ذلك؟ فكلامه تشدد في غير موضعه.

(2) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين (1437 هـ – 2017 م) المدخل إلى علم السنن، تحقيق: محمد عوامة، الطبعة الأولى، مصر: دار اليسر للنشر والتوزيع، بيروت: دار المنهاج للنشر والتوزيع، وهذا النص من بدء كلام البيهقي، أخرجه عن الإمام أحمد، ثم ابتدأ القول: " وبيان ذلك في حديث ابن عباس...(502/2).

قال البيهقي[1]: وفيما روينا من الأحاديث المشهورة في ذكر من جمع القرآن من الصحابة رضي الله عنهم على عهد رسول الله ﷺ، ثم ما روينا عن زيد بن ثابت ﷺ: "كنا حول ﷺ نؤلف القرآن"، ثم ما روينا في كتاب السنن: "أن النبي ﷺ قرأ في صلاة كذا بسورة كذا"، دلالةٌ على صحة ما قلناه، إلا أنه كان مُثبتاً في صدور الرجال، مكتوباً في الرِّقاع واللِّخَاف والعُسُب، وأمر أبو بكر ﷺ حين استحر القتل بقراء القرآن يوم اليمامة بجمعه من مواضعه في صحف، ثم أمر عثمان بن عفان ﷺ حين خاف الاختلاف في القراءة بتحويله منها إلى مصاحف، مع بذل المجهود في معارضة ما كان في الصحف بما كان مثبتاً في صدور الرجال، وذلك كله بمشورة من حضر من علماء الصحابة، وارتضاه علي بن أبي طالب ﷺ، وحمد أثره فيه. والله يغفر لنا ولهم.

ويشبه أن يكون رسول الله ﷺ إنما لم يجمعه في مصحف واحد؛ لما كان يعلم من جواز ورود النسخ على أحكامه ورسومه، فلما ختم الله دينه بوفاة نبيه ﷺ، وانقطع الوحي قيض لخلفائه الراشدين عند الحاجة إليه جمعه بين الدفتين، وقد أشار أبو سليمان الخطابي –رحمه الله – إلى جملة ما ذكرناه، وذكره أيضاً غيره من أئمتنا، والأخبار المشهورة ناطقةٌ بجميع ذلك، والحمد لله على ظهور دينه ووضوح سبيله. قاله البيهقي في كتابه "المدخل إلى السنن"، هذا مما أشير به إلى ترتيب القرآن في المصحف.

أما ترتيب نزوله: فلم يكن كترتيبه في المصحف، ونزوله على نيف وعشرين وجهاً، فمنه ما نزل بمكة، وعدد السور المكيات أربعٌ وثمانون سورةً، –أولها كما تقدم على الأكثر– {﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾} [سورة العلق:1]، وآخرها في قول ابن عباس رضي الله عنه : سورة العنكبوت، وفي قول الضحاك ابن مزاحم، وعطاء بن أبي رباح: المؤمنون".

ويُمكن ترتيب الكلام في هذا المطلب، على النحو التالي:

أولًا: ترتيب الآيات: أما ترتيب الآيات، كان بتوقيف من النبي ﷺ، وهذه من مسائل الإجماع عند الأمة، وقد نقل هذا الإجماع غير واحد من أهل العلم.

قال ابن الزبير الغرناطي – رحمه الله– : "إن ترتيب الآيات في سورها وقع بتوقيفه ﷺ، وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين"[2].

(1) المرجع السابق (503/2)، وانظر: البيهقي، أبو بكر، أحمد بن الحسين (1408 هـ - 1988 م) دلائل النبوة، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث، (152/7).

(2) ابن الزبير، أحمد بن إبراهيم الغرناطي (1410 هـ - 1990 م) البرهان في تناسب سور القرآن، د.ط، تحقيق محمد شعباني، المغرب: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (ص:182).

وقال الزركشي – رحمه الله–: "فأما الآيات في كل سورة، ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلاشك، ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها"[1].

ثانيًا: ترتيب السور: فما نقله ابن ناصر الدين عن البيهقي، كلامٌ رصينٌ، يدل أن السور رُتبت في المصحف في الجملة على ترتيب رسول الله ﷺ.

(1) حديث واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: ((أُعْطِيتُ مكانَ التَّوْراة السبعَ الطِّوالَ، وأُعْطِيتُ مكان الزبور الْمِئِينَ، وأُعْطِيتُ مكان الإنجيل المثانيَ، وفُضِّلْت بالمفصَّلِ))[2].

قال أبو جعفر النحاس– رحمه الله– مُعلِّقًا: " وهذا الحديث يدل على أن تأليف القرآن مأخوذٌ عن النبي ﷺ، وأنه مؤلفٌ من ذلك الوقت"[3].

(2) وعَن أوس بن حُذيفة الثقفي – رضي الله عنه– قال: " كنت في الوفد الذين أتوا النبي ﷺ أسلموا من ثقيف، من بني مالك، أنزلنا في قبة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته، وبين المسجد، فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا، ولا نبرح حتى يحدثنا، ويشتكي قريشا، ويشتكي أهل مكة، ثم يقول: ((لا سواء، كنا بمكة مستذلين، ومستضعفين، فلما خرجنا إلى المدينة كانت سجال الحرب علينا، ولنا))، فمكث عنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء، قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قال: ((طرأ علي حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتى أقضيه))، قال: فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا، قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ثلاث سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من قاف حتى يختم"[4].

قال ابن حجر– رحمه الله– : فهذا يدل على أن ترتيب السور على ما هو في المصحف الآن كان في عهد النبي ﷺ[5]وقال أبو بكر بن الأنباري– رحمه الله – [6]: أنزل القرآن كله إلى سماء الدنيا، ثم فرِّق في بضعٍ

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن (181/1)، وانظر: كلام المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، د.ط، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت (380/8).

(2) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده كتاب باب (136/1)، والبيهقي في دلائل النبوة (475/5)، وحسنه السيوطي: فيض القدير شرح الجامع الصغير (565/1).

(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن (258/1).

(4) أبو داود، سليمان بن الأشعث (1430 هـ – 2009 م) سُنن أبي ادوود، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط، وآخر، الطبعة الأولى، بيروت: دار الرسالة العالمية، كتاب شهر رمضان، باب في كم يقرأ القرآن؟ (رقم:1393)، وابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (1430 هـ – 2009 م) سنن ابن ماجه، تحقيق: شعَيب الأرنؤوط، واخرون، الطبعة الأولى، بيروت: دار الرسالة العالمية، كتاب إقامة الصلاة، باب في كم يستحب يختم القرآن (رقم:1345)، وأخرجه أحمد في مسنده (رقم:16166).

(5) ابن حجر، أحمد بن علي، أبو الفضل العسقلاني (1379هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة (658/8).

(6) الزركشي، البرهان في علوم القرآن (260/1).

وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جوابًا لمستخبر، ويقف جبريلُ النبيَّ ﷺ على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ، فمن قَدَّم سورة أو أَخَّرَها، فقد أفسد نظم الآيات".

بل قال الكرماني – رحمه الله – (1): "وهكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ، وهو على هذا الترتيب كان يعرض – عليه الصلاة والسلام . على جبريل".

ومما يُستدل به على ذلك "أن الصحابة أجمعوا على المصحف الذي كتب في عهد عثمان، ولم يُخالف منهم أحد، وإجماعهم لا يتم إلا إذا كان الترتيب الذي أجمعوا عليه عن توقيف؛ لأنه لو كان عن اجتهاد لتمسك أصحاب المصاحف المخالفة بِمخالفتهم، ولكنهم عدلوا عن مصاحفهم وأحرقوها، ورجعوا إلى مصحف عثمان وترتيبه جميعًا"(2).

قال السيوطي – رحمه الله – (3): ومِمَّا يدل على أنه توقيفي كون الحواميم رتبت ولاءً، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاءً، بل فصل بين سورها، وفصل بين (طسم) الشعراء و(طسم) القصص بـ (طس) مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب اجتهاديًّا لذكرت المسبحات ولاءً، وأُخِّرت (طس) عن القصص، والذي ينشرح له الصدر ما ذهب إليه البيهقي(4)، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفي، إلا براءة والأنفال، ولا ينبغي أن يستدل بقراءته ﷺ سورًا ولاءً على أن ترتيبها كذلك، وحينئذ لا يَرِدُ حديث قراءته النساء قبل آل عمران؛ لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجبٍ، ولعله فعل ذلك لبيان الجواز".

المطلب الرابع

جمع القرآن

كلام الحافظ ابن ناصر الدِّين – رحمه الله– في هذا المطلب ينحصر في ثلاث مسائل:

المسألة الأولى: الجمع الأول للقرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق ﷺ، وسببه.

المسألة الثانية: الجمع الثاني للقرآن الكريم في عهد عثمان بن عفان ﷺ، وسببه.

المسألة الثالثة: لِمَ لم يجمع النبي ﷺ القرآن في حياته؟

(1) الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر (د.ت) البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، الرياض: دار الفضيلة، د.ط (ص: 68).

(2) الزرقاني، مناهل العرفان (354/1).

(3) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (219/1).

(4) البيهقي، دلائل النبوة (152/7).

قال ابن ناصر الدين[1]– رحمه الله – : " وأمر أبو بكر ﷺ حين استَحَّر القتل بقُرَّاء القرآن يوم اليمامة[2] بجمعه من مواضعه في صُحف، ثم أمر عثمان بن عفان ﷺ حين خاف الاختلاف في القراءة بتحويله منها إلى مصاحف[3]، مع بذل المجهود في معارضة ما كان في الصحف بما كان مثبتاً في صُدور الرجال، وذلك كله بمشورة مَنْ حَضَر من عُلماء الصَّحابة، وارتضاهُ علي بن أبي طالب ﷺ، وحمد أثره فيه[4]. والله يغفر لنا ولهم، ويُشبه أن يكون رسول الله ﷺ إنما لم يجمعه في مصحف واحد؛ لما كان يعلم من جواز ورود النسخ على أحكامه ورسومه، فلما ختم الله دينه بوفاة نبيه ﷺ، وانقطع الوحي قيض لخلفائه الراشدين عند الحاجة إليه جمعه بين الدفتين.، وقد أشار أبو سليمان الخطابي رحمه الله إلى جُملة ما ذكرناه، وذكره أيضاً غيره من أئمتنا[5]، والأخبار المشهورة ناطقةٌ بجميع ذلك، والحمد لله على ظهور دينه، ووضوح سبيله. قاله البيهقي في كتابه "المدخل إلى السنن[6]".

المطلب الخامس

عَدُّ آي القرآن الكريم

قال الحافظ ابن ناصر الدين[7] : " العدد المدني، والبصري، والكوفي، وهذه الثلاثة[8]

(1) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لقد من الله على المؤمنين (ص:181).

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: { لقد جاءكم رسول من أنفسكم} [سورة التوبة:128]، من حديث زيد بن ثابت (رقم:4679).

(3) المرجع السابق، باب جمع القرآن، من حديث أنس بن مالك (رقم:4987).

(4)ابن شبة، أبو زيد، عمر بن شبة بن عبيدة بن ريطة النميري البصري (1399هـ) تاريخ المدينة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، د.ط، جدة: طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد، أخرجه بسنده إلى سويد بن غفلة قال: " فوالله لا أحدثكم إلا بشيء سمعته من علي: سمعته يقول: " اتقوا الله في عثمان ولا تغلوا فيه، ولا تقولوا حراق المصاحف، فوالله ما فعل إلا عن ملأ منا أصحاب محمد، دعانا فقال: ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضكم يقول: قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرا، وإنكم إن اختلفتم اليوم كان لمن بعدكم أشد اختلافا "، قلنا: فما ترى؟ قال: "أن أجمع الناس على مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف"، قلنا: فنعم ما رأيت، قال: "فأي الناس أقرأ؟" قالوا: زيد بن ثابت، قال: «فأي الناس أفصح وأعرب؟" قالوا: سعيد بن العاص، قال: "فليكتب سعيد وليمل زيد" ، قال: فكانت مصاحف بعث بها إلى الأمصار، قال علي: «والله لو وليت لفعلت مثل الذي فعل" (959/3)، وأخرجه يعقوب بن سفيان الفسوي في مشيخته (ص:122)، وابن أبي داوود في المصاحف (205/1)، وانظر: كنز العمال في "جمع القرآن" (رقم:4777)، شرح السنة، للبغوي (425/4)، غانم قدوري، رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية، (ص 95 – 107) وما بعدها.

(5) البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء، (1403هـ – 1983م) شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية، بيروت: المكتب الإسلامي، (513/4–523)، وانظر: أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي (1395 هـ – 1975 م) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، (ص:64).

(6) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، (1437هـ – 2017 م)، المدخل إلى علم السنن، اعتنى به وخرّج نقوله: محمد عوامة، الطبعة الأولى، مصر: دار اليسر للنشر والتوزيع، القاهرة، بيروت: دار المنهاج للنشر والتوزيع (504/2)، وانظر: السنن الكبرى له (2/ 41)، وما بعدها.

(7) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: {لقد من الله على المؤمنين }، (ص:59).

(8) ولم يذكر الحافظ ابن ناصر الدين: العد المكي، وهو ما أضيف إلى مجاهد، فيما رواه الداني، عن ابن كثير، ومجاهد رواه عن عبد الله بن عباس، عن أبي بن كعب رض، والعد الشامي، ويجمع الدمشقي، والحمصي، يُنسب في دمشقي إلى عبد الله بن عامر، من طريق يحيى الذماري، والحمصي ما أضيف إلى شريح، انظر: القاضي، عبد الفتاح بن عبد الغني بن محمد (1404هـ) الفرائد الحسان في عد آي القرآن، المدينة المنورة: مكتبة الدار، الطبعة الأولى، ((ص:26).

هي التي عليها عدد آي القرآن[1].

أما العدد المدني: فمنسوب إلى قارئ المدينة أبي جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي مولاهم، وإلى ختنه على ابنته ميمونة: شيبة بن نصاح ابن سرجس بن يعقوب، مولى أم سلمة أم المؤمنين، قاضي المدينة، ومات هو وأبو جعفر في عام واحد سنة ثلاثين ومئة.

وأما العدد البصري: فمنسوب إلى أبي المجشر، عاصم بن أبي الصباح الجحدري البصري، المتوفى سنة ثمان وعشرين ومئة، وأما العدد الكوفي: فرواه أبو محمد خلف بن هشام البزار، عن سليم بن عيسى، عن حمزة بن حبيب الزيات، أنه قال: هذا العدد عدد أبي عبد الرحمن السُلمي، ولا أشك فيه، عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ، إلا أني أجبن عنه، وهذه الطرق الثلاثة في العدد تارةً ينفرد المدنيون بعدد دون البصريين والكوفيين، أو البصريون أو الكوفيون دون الباقين، وتارة يتفق اثنان من الثلاثة دون الثالث، وتارة يتفقون على عددٍ من غير خلاف، كهذه الآية الشريفة، اتفق المدنيون والبصريون والكوفيون على أنها آية واحدة"، وهذا العد الذي ذكره الحافظ ابن ناصر الدين، مشهورٌ عند علماء القرآن، والقراءات، وألف فيه أبو عمرو الداني[2] كتاب "البيان في عد آي القرآن"، بدأ بالأحاديث الواردة في ذكر الآيات، وأنها مأثورة عن النبي ﷺ، وعَرَّف بطرقه، وأئمته من الصحابة، ومن يروي عنهم من التابعين، ثم تتبع سور القرآن، مُبينًا: عد آيهِ عند كل طائفة".

المطلب السادس

القراءات

عرَّف ابن الجزري – رحمه الله – علم القراءات، بأنه: "علم بكيفية آداء كلمات القرآن، واختلافها، معزّواً لناقله"[3] قال ابن ناصر الدين[4]: "والقسم الثاني من أقسام علوم القرآن: معرفة وجوه قراءاته، وهي على أقسام، منها:

(1) وقد تتبع كثير من علماء التفسير، وعلوم القرآن، هذا العد، في كل سورة من سور القرآن، البيان في عد آي القرآن، ابن الجوزي، عبد الرحمن، أبو الفرج، فنون الأفنان في علوم القرآن (مرجع سابق) ((ص:236).

(2) الداني، أبو عمرو، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر، (1414هـ– 1994م) البيان في عدّ آي القرآن، تحقيق: غانم قدوري الحمد، الكويت: مركز المخطوطات والتراث، الطبعة الأولى.

(3) ابن الجزري، أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف، (1420هـ -1999م)، مُنجد المقرئين، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (ص:3)، ويُنظر للاستزادة: الزركشي، البرهان في علوم القرآن (180/1)، البنا، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي (1419هـ – 1998م) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، تحقيق: أنيس مهرة، لبنان: دار الكتب العلمية، الطبعة 1، (ص:6)، عبد الفتاح القاضي، البدور الزاهرة (ص 5)، أ.د محمد عبد الرحمن الشائع (1433هـ -2012م) مُعجم مصطلحات علوم القرآن، إصدارات الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه، الرياض: دار التدمرية، الطبعة 1، (ص:116).

(4) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لقد من الله على المؤمنين }، (ص:274) : قال في الهامش: وقد قال المصنف ¬ في الأوراق غير المرتبة بعد أن قسم هذا التقسيم، وتكلم على اللحن الجلي والخفي: وكتب النص أعلاه.

القسم الأول: معرفة وجوه القراءات عن الأئمة السبعة الذين جمعتهم في بيت مفرد للمعرفة بهم فقلت:

أئمةُ قُراء القراءات سبعة ضياؤهم كالزَّهر في الناس لامعُ

هم ابنُ كثيرٍ، ابنُ العلاءِ، ابنُ عامر كسائيٌّ، الزَّيَّاتُ، عاصمُ، ونافعُ

وأول من جمع قراءاتهم الإمام أبو بكر، أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد التميمي البغدادي[1] كان في حلقته أربعة وثمانون خليفة، يأخذون على الناس، توفي في شعبان سنة أربع وعشرين وثلاث مئة.

وإنما جمع قراءة هؤلاء السبعة؛ ليكون موافقًا لعدد الحروف السبعة[2] التي أُنزل القرآن عليها، لا أنها بعينها هي التي أُنزل القرآن عليها.

والخلاف مشهور: هل مصحف عثمان المتضمن للعرضة الأخيرة التي عرضها رسول الله ﷺ على جبريل هو أحد الحروف السبعة التي أُنزل عليها القرآن، أم هذا المصحف مشتمل على الاحرف السبعة المُشار إليها؟ قولان للعلماء، وجمهورهم على الأول[3].

وذهب إلى الثاني طوائف من الفقهاء والقراء والمتكلمين، بناء على أنه لا يجوز على الأمة أن تُهمل نقل شيء من الأحرف السبعة، وقد اتفقوا على نقل هذا المصحف العثماني، وعلى ترك ما سواه.

والقسم الثاني من وجوه القراءات: قراءة الأئمة الثلاثة بعد السبعة، وهم أبو جعفر بن يزيد بن القعقاع المدني، التابعي المشهور، وأبو محمد يعقوب بن إسحاق الحضرمي، مولاهم البصري، وأبو محمد، خلف بن هشام البزار الأسدس البغدادي.

والقسم الثالث: قراءة أئمة غير العشرة، الذين صح الإسناد بقراءتهم، وتشملهم الكتب المصنفة في ذلك، مثل كتاب "وجوه القراءات"، لأبي عُبيد القاسم بن سلام، وغيره.

---

(1) مكي، بن أبي طالب القيسي، الإبانة عن معاني القراءات (1977م)، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي; ، مصر: دار النهضة; د.ط، ،((ص:63)؛ أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، إبراز المعاني من حرز الأماني (د.ت)، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، (98/1)

(2) هي ألفاظٌ مُنْزَلة، متعددةٌ في الموضع الواحد من القرآن الكريم، مُرادفةٌ للغة قريش ثَبَعًا للغات العرب، أنزلها الله تيسيرًا على المكلفين في بعض كلمات القرآن، سواءً في اختلاف الرسم تبعًا للمعنى، أو اختلاف الحروف بتقديم، أو تأخير، وغيرهما. قال أبو عمرو الداني:" قال الداني: الأحرف الأوجه أي أن القرآن على سبعة أوجه من اللغات"، الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر، الأحرف السبعة للقرآن، تحقيق: د. عبد المهيمن طحان، مكة المكرمة: مكتبة المنارة، الطبعة1، (ص:27)؛ وانظر: د. عبد العزيز قارئ، حديث الأحرف السبعة، مناع القطان، نزول القرآن على سبعة أحرف.

(3) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (1416هـ/1995م) مجموع الفتاوى، جمع الشيخ عبد الرحمن بن قاسم، السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية (394/13)، وانظر: ابن الجزري، أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف، (1420هـ –1999م) ، مُنجد المقرئين، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (ص:22).

والقسم الرابع: سوى ما تقدم، وهو الشاذ، وهو على قسمين:

شاذ سندًا، ومتنا، وشاذ متنًا، صحيح سندًا، كما قد صح من قراءة ابن مسعود، وأبي الدرداء –رضي الله عنه– : (والليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، والذكر والأنثى)[1] ، وكقول ابن عباس رضي الله عنه : لما نزل قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين، ورهطك منهم المخلصين)[2] صعد النبي ﷺ الصفا، وذكر الحديث .

وهذه التقسيمات تُظهر رأي ابن ناصر الدين في ما زاد عن السبعة في القراءات، وأن صواب القراءة ليس محصورًا فيها، فكل قراءة تحققت فيها الشروط المُعتبرة؛ فهي قراءة صحيحة، تصح القراءة بها باتفاق العلماء[3] .

وهذه الشروط هي: صحة إسنادها، وموافقة رسم المصحف، وموافقة العربية، ولو بوجه[4].

قال ابن الجزري: "نقول: كل قراءة وافقت العربية مطلقا، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديرا وتواتر نقلها، هذه القراءة المتواترة المقطوع بها. [5]"

وقد نَظَمها ابن الجزري قال ابن الجزرى في متن "الطيبة"[6]:

فكل ما وافق وجه نحو ... وكان للرسم احتمالاً يحوي
وصح إسناداً هو القرآن ... فهذه الثلاثة الأركان

وحيثما يختلُّ ركن أثبت ... شذوذه لو أنه في السبعة

(1) أخرجه البخاري في التفسير، باب "والنهار إذا تجلى" ((رقم:4943)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب ما يتعلق بالقراءات ((رقم:1916 و 1919).

(2) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة تبت يدا أبي لهب، (رقم:4971)، مسلم، أبو الحُسين، مسلم بن الحجاج، القُشيري، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: {بي تر تز تم}، (رقم:355).

(3) ابن الجزري، أبو الخير(1380هـ) محمد بن محمد بن يوسف، النشر في القراءات العشر، تحقيق: علي محمد الضباع، بيروت: المطبعة التجارية الكبرى، تصوير دار الكتاب العلمية قال ابن الجزري -رحمه الله -في النشر: "وقد نقل البغوي في أول تفسيره الاتفاق على القراءة بقراءة يعقوب وأبي جعفر مع السبع المشهورة، قال: وهذا القول هو الصواب. واعلم أن الخارج عن السبعة المشهورة على قسمين: منه ما يخالف رسم المصحف، فهذا لا شك في أنه لا يجوز قراءته، لا في الصلاة ولا في غيرها، ومنه ما لا يخالف رسم المصحف، ولم تشتهر القراءة به، وإنما ورد من طريق غريبة لا يعول عليها، وهذا يظهر المنع من القراءة به أيضا، ومنه ما اشتهر عند أئمة هذا الشأن القراءة به قديما وحديثا، فهذا لا وجه للمنع منه، ومن ذلك قراءة يعقوب وغيره، قال: والبغوي أولى من يعتمد عليه في ذلك؛ فإنه مقرئ فقيه جامع للعلوم، قال: وهكذا التفصيل في شواذ السبعة، فإن عنهم شيئا كثيرا شاذا. انتهي". (١/ 9).

(4) المرجع السابق (١/ ٤٤ – ٤٧)، وانظر: أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، (مرجع سابق) المرشد الوجيز (ص:178)، مُنجد المقرئين (ص:18).

(5) ابن الجزري، مُنجد المقرئين (ص:18).

(6) ابن الجزري، متن طيبة النشر في القراءات العشر، تحقيق محمد تميم الزعبي، الناشر: دار الهدى بجدة، ط ١ ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤ م (الأبيات من)١٤ - ١٦

وقد عقد ابن الجزري في كتابه "مُنجد المُقرئين" بابًا في أن العشرة لا زالت مشهورة من لدن قرئ بها، وإلى اليوم، لم يُنكرها أحد من السلف ولا من الخلف[1].

ثم عرَّف بالقراءة الصحيحة، وأنها ما تحققت فيها هذه الشروط، سواء استفاضت، وتلقتها الأمة بالقبول، أم لا، فكلاهما: "الذي يظهر من كلام كثير من العلماء: جواز القراءة به، والصلاة به".

ومتى ما تخلف ركنٌ من هذه الأركان الثلاثة؛ فهي شاذة، لا يجوز القراءة بها، ولا الصلاة.

ثم أكد على هذا التقعيد؛ لِيُعلم رأيه في كل قراءة اجتمعت فيها هذه الشروط، فقال: "وأما قول الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله في كتاب "التبيان[2]" مما يُفهم رد ما زاد على العشرة، فقد أباه الأئمة المحققون، والفقهاء المدققون، كما تقدم الإشارة إليه من كلام السلف، والخلف، وغيرهم، إذ مدار صحة القراءة على الأركان الثلاثة المتقدمة، فهو الحق الذي لا محيد عنه، والحق أحق أن يتبع، والله الولي الموفق"[3].

المطلب السابع

التفسير والتأويل، الفرق بينهما

أولًا: تعريف التفسير، والتأويل:

أ- التفسير:

التفسير لغة: هو الكشف، والبيان، وشتقاقه: إما أنه من "الفَسْر، والفَسْر: البيان، وكشف المُغطى، يُقال: فَسَر الشيء يَفسِره بالكسر، ويَفسُره بالضم فَسْرًا، والتفسير: كشف المغطى، وكشف المراد عن اللفظ المشكل[4].أو هو من "التفسرة": وهو الماء الذي ينظر فيه الطبيب لكشف علّة المريض، وكل ما ترجم عن حال شيءٍ؛ فهو تفسِرته، وكذّلك المفسّر يكشف عن شأن الآية وقصتها[5].

(1) ابن الجزري، مُنجد المقرئين (ص:25).

(2) النووي، محيي الدين يحيى بن شرف (1414 هـ - 1994م) التبيان في آداب حملة القرآن، تحقيق: محمد الحجار، الطبعة: الثالثة، (ص:97).

(3) ابن الجزري، أبو الخير، محمد بن محمد بن يوسف، (1420هـ -1999م)، مُنجد المقرئين، مرجع سابق (ص:69).

(4) ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (1419هـ) لسان العرب، بيروت: دار إحياء التراث العربي، الطبعة 3 (55/5)، وللتوسع، ينظر: الخليل، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: د مهدي المخزومي، وآخر، دار ومكتبة الهلال، د.ت، د.ط (248/7)، ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني (1399هـ - 1979م) معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، بيروت: دار الفكر، د.ط.

(5) الزمخشري، أبو القاسم، محمود بن عمر(2003م) أساس البلاغة، تحقيق: محمود فهمي حجازي، مصر: الشركة الدولية للطباعة، الطبعة 1 (273/2). وانظر: الزركشي، بدر الدين محمّد بن عبد الله (1376هـ – 1957م) البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، بيروت: دار المعرفة (258/1). (331/1).

وقيل: التفسير مقلوب "سفر"، يقال: أسفر الصبح إذا ظهر وبان، وسفرت المرأة عن وجهها كشفته[1].

قال ابن ناصر الدِّين :" ومعنى التفسير في اللغة –ويقال له الفسر–: الكشف، يقال: فَسَرْتُ الحديث – بالفتح– أَفْسِرهُ –بالكسر– فَسْرًا؛ إذا بينته؛ وفَسَّرتُهُ –بالتشديد– تفسيرًا، كذلك، والتَّفْسِرة: ماء العليل الذي يُرفع للطبيب، فإذا رآه كشف له عن العلة. هذا موضوعه لغةً".

أما التفسير اصطلاحاً: فقد عرَّفه ابن ناصر الدِّين بقوله: " فهو الكلام على أسباب نزول القرآن، وبيان أحكامه المجملة فيه من السنة، كبيان الصلوات".

ولعل أجمع تعريف للتفسير، أن يُقال: **بيان معاني ألفاظ القرآن، ودلالاتها، وأسبابها، وما يُستفاد منها**[2].

التأويل في اللغة: هو المرجع، والمصير، والتفسير، وأصله مصدرٌ من أوَّل يؤَوِّل تأويلاً، أي رجع وعاد[3].

قال الراغب رحمه الله : " التأويل: من الأَوْل؛ أي الرجوع إلى الأصل، ومِنْه المَوْئِل للموضع الذي يُرجع إليه، وذلك هو رَدُّ الشيء إلى الغاية المُرادة مِنه عِلماً كان، أو فِعلاً، ففي العِلم، نحو قوله تعالى: { **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ** } [آل عمران: 7]، وفي الفِعل قوله تعالى: { **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ** } [الأعراف: 53]؛ أي بيانه الذي هو غايته المقصودة منه"[4].

ب– **التأويل في الاصطلاح:**

ذُكر للتأويل معنيان أولهما: التفسير، وثانيهما: حقيقة الشئ، وما يؤول إليه، ومما يدل على المعنى الأول: قوله ﷺ لابن عباس – رضي الله عنه– : ((اللهم فقه في الدِّين، وعلمه التأويل))[5]، أي التفسير[6].

وأما المعنى الثاني، فيدل عليه نصوصًا كثيرة، وغالب ورود لفظ التأويل في القرآن الكريم، هو بهذا المعنى[7]، قال تعالى: { **وإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً** } [سورة

(1) ابن منظور، لسان العرب (369/4)، الزركشي، البرهان في علوم القرآن، (ص:331).

(2) ابن عاشور، محمد الطاهرابن عاشور (1884م) التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، د.ط (11/1)، وهو أقرب تعريف لما اخترته، ولمزيد إطلاع، يُنظر: أبو حيان، البحر المحيط (121/1)، السيوطي، جلال الدِّين، الاتقان في علوم القرآن (4، (ص:450، الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن (335/1).

(3) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق: د. محمد فؤاد سزكين، مصر: مكتبة الخانجي، د.ط، د.ت (86/1)، تهذيب اللغة (329/8)، الصحاح (1627/4)، الطبري ابن جرير في تفسيره (222/5).

(4) الراغب الأصفهاني، المفردات (ص:40).

(5) أخرجه الإمام أحمد (رقم:2397)، قال أحمد شاكر في تعليقه على المُسند (225/4): " إسناده قوي على شرط مسلم "، وأخرجه ابن حبان في باب ذكر وصف الفقه والحكمة اللذين دعا المصطفى ﷺ لابن عباس بهما (رقم: 7055)، وأخرجه الحاكم في معرفة الصحابة، باب ذكر عبدالله بن عباس (رقم:6280)، وقال: " هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه " ووافقه الذهبي..

(6) ينظر: تهذيب الآثار للطبري (183/1).

(7) ينظر: درء تعارض العقل والنقل (234/5).

النساء:59]، { وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً } [سورة الإسراء:35]، فالتأويل هنا بمعنى العاقبة[1]، { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ } [سورة آل عمران:7]، { وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ } [سورة الأعراف:53]، { بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ } [سورة يونس:39].

ومن الأدلة على المعنيين: قوله تعالى: { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ [سورة يوسف:37]، { قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ } [سورة يوسف:45].

وتأويل الرؤيا: هو تفسيرها، وبيان عاقبتها.

قال ابن تيمية –رحمه الله –: "وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان: أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، والمعنى الثاني: هو نفس المراد بالكلام، فإن الكلام إن كان طلباً؛ كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً ؛ كان تأويله نفس الشيء المخبر به"[2].

قال ابن القيم – رحمه الله –: "وبالجملة فالتأويل الذي يوافق ما دلت عليه النصوص، وجاءت به السنة ويطابقها، هو التأويل الصحيح، والتأويل الذي يخالف ما دلت عليه النصوص، وجاءت به السنة، هو: التأويل الفاسد"[3].

وهناك معنى ثالث للتأويل، نشأ كمصطلح عند الأصوليين، ومعناه: "احتمالٌ يعضده دليلٌ، يصير به أغلب على الظن من الظاهر"[4].

وهذا المصطلح يُستشهد له باللغة؛ فإن اللغة زاخرة بهذا المعنى، والمُشكلة ليست في وجوده، وصحته في بعض الاستعمال، ولكن في تطبيقاته؛ إذ غالب من سلَّط هذا المعنى على النصوص الشرعيَّة، كان مُجازفًا في قوله، دون اعتبارٍ لضوابط وقواعد، تُفرِّق متى يُلجأ إليه، ومتى لا يُلجأ، بل كل ما أشكل عليهم فهمه،

(1) الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري (187/7)، (592/14)، البغوي، معالم التنزيل (242/2) (92/5).

(2) مجموع الفتاوى (288/13).

(3) ابن القيم، محمد بن أبي بكر الزرعي (1408هـ)، الصواعق المرسلة على الجهمية والمُعطّلة، تحقيق: د. الدخيّل، الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولى، (187/1) .

(4) هذا تعريف الغزالي، وقيل: "صرف اللفظ من المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح بدليل، أو لقرينة"، وأغرب بعض الأصوليين فقال: وهذا الحد ضعيف؛ وذلك أنه ليس من ضرورة التأويل: أن يُعضَد بدليل راجح، ولا أن يُعضَد أولاً بدليل، ولهذا يقال: هذا تأويل" علي بن إسماعيل الأبياري، التحقيق والبيان في شرح البرهان في أصول الفقه (1434 هـ – 2013 م) د. علي بن عبد الرحمن بسام الجزائري، الكويت: دار الضياء، الطبعة: الأولى، (433/2)، وانظر أيضًا: د. محمد الجيزاني، (1427هـ)، معالم في أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، السعودية: دار ابن الجوزي، الطبعة الخامسة، (ص:386).

أَوَّلوه بما يوافق الرأي والهوى غالبًا، ولذا سمى ابن القيم التأويل بهذا المعنى، وهذا الفعل: رأسًا للطواغيت المتفرعة عنه؛ كما في الصواعق المُرسلة؛ فليُنظر [1].

ثانيًا: الفرق بين التأويل والتفسير

أكثر العلماء أنه لا فرق بينهما، وهناك من فرق بينهما، إما من جهة الدَّلالة اللفظية، أو من جهة العموم والخصوص، أو من جهة مصدرهما[2] وقد فرَّق ابن ناصر الدِّين بينهما من حيث الرواية والدراية:

قال رحمه الله [3]: "الكلام على هذه الآيات من وجوه كثيرة مبنية على أصلين:

أحدهما: التفسير المأخوذ بطريق النقل والسماع.

والثاني: التأويل الراجع إلى القواعد الشرعية، والعقائد السنية، ومذاهب اللغة ووجوه العربية...".

وقال: " ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من جهة التفسير من طريق المنقول عن الأئمة المرضية، ومن التأويل الراجع إلى القواعد الشرعية والعقائد السنية، ومعاني اللغة ووجوه العربية.

وإن انضم إلى ذلك معرفة المعاني والبيان والبديع كان بليغاً في فهم الحكم والآيات، وعلم الحجج والبراهين القاطعات".

والذي يترجح لي أنه من حيث المعنى اللغوي لا فرق بينهما، وأما من جهة الاصطلاح، فلا يوجد اتفاق اصطلاحي، ولا مشاحة في الاصطلاح إن سَلِم من المَفسدة.

قال ابن عاشور – رحمه الله– :" "وهذه كلها اصطلاحات لا مُشاحّة فيها، إلا أن اللغة والآثار تشهد للقول الأول؛ لأن التأويل مصدر أوّله إذا أرجعه إلى الغاية المقصودة، والغاية المقصودة من اللفظ هو معناه، وما أراده منه المتكلم به من المعاني، فساوى التفسير، على أنه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول"[4] فقوله: " على أنه لا يطلق إلا على ما فيه تفصيل معنى خفي معقول "، رجوع إلى التفريق بينهما، والله أعلم.

(1) ابن القيم، محمد بن أبي بكر الزرعي، الصواعق المُرسلة على الجهمية والمُعطلة، تحقيق: علي بن محمد بن دخيل الله، الرياض: دار العاصمة، د.ط، د.ت، (175/1-628).

(2) أبو عبيدة، معمر بن المثنى، مجاز القرآن (86/1)، تهذيب اللغة (329/8)، الصحاح (1627/4)، الطبري ابن جرير في تفسيره (222/5)، مقدمة جامع التفاسير للراغب ص47، وانظر: البرهان في علوم القرآن (149/2)، والإتقان في علوم القرآن 192/4.

(3) ابن ناصر الدّين الدمشْقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: {لقد من الله على المؤمنين}، (ص:233)، ولمزيد بيان حول هذا المعنى، انظر: البرهان في علوم القرآن (150/2)، وقال أيضًا (172/2):" وكأن السبب في اصطلاح بعضهم على التفرقة بين التفسير والتأويل: التمييز بين المنقول والمستنبط؛ ليحمل على الاعتماد في المنقول، وعلى النظر في المستنبط، تجويزاً له وازدياداً، وهذا من الفروع في الدّين".

(4) التحرير والتنوير، لابن عاشور (16/1) .

المطلب الثامن

علم المُحكم والمتشابه.

بادئ ذي بدء، فإن كثيرًا من العلماء يُفرقون بين متشابه القرآن، لتعدد أنواعه، فيجعلونه قسيم المُحكم، إشارة إلى أنه التشابه الواقع في جهة المعنى، ويُفردونه عن المُحكم في الحديث، إشارة إلى التشابه اللفظي، وابن ناصر الدِّين جمع الكلام في جميع أنواعه، فنقسمه في العرض على الأنواع، حتى لا يقع لَبْسٌ فيه.

المسألة الأولى: تعريف المحكم والمتشابه:

المحكم في اللغة مأخوذ من: حَكَمَ، وتُطلق على عِدَّة معان، منها: المنع، والإتقان، وكل ما منعته؛ فقد أحكمته، وحكمته، كما قال الأزهري[1].

والمتشابه في اللغة: من الشَّبَه، والشِّبْه، ومعناه: التماثل، والتشاكل، ومنه ينشأ الاختلاط، والإلتباس، والإشْكال، هذا مُجمل كلام أهل اللغة[2]

وأما تعريفهما اصطلاحًا: قال الإمام أحمد[3]~:" المتشابه: الذي يكون في موضعٍ كذا، وفي موضعٍ كذا: مُختلف، والمُحكم: الذي ليس فيه اختلاف"، وهذا من أدق تعريفاتهما؛ فالمُحكم: بيِّنٌ لا يُشتبه في معناه، وأما المُتشابه: فيأتي في موضعٍ مُخالف للمواضع الأخرى، وفسَّره أبو يعلى بقوله[4]: " ظاهر كلام أحمد– رحمه الله– : أن المحكم: ما استقل بنفسه، ولم يحتج إلى بيان، والمتشابه: ما احتاج إلى بيان".

وقال الجصاص: " المُحْكَم: ما لا يَحتَمِل إلا وجْهًا واحدًا، والمُتشابه: ما يَحتَمِلُ وجهين، أو أكثر منهما"[5].

قال ابن ناصر الدِّين[6] رحمه الله : "والمتشابه في القرآن إما يكون في المعنى، أو اللفظ.

والأول: ما اشتبهت وجوه المراد منه، فلم يتعين المقصود به، قال الله عز وجل: {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [سورة آل عمران:7] فالمُحْكَم: المُبَيَّن؛ الذي ارتفعت عنه وجوه الإجمال، والاحتمال.[7]

---

(1) انظر: مادة "ح ك م" في تهذيب اللغة (69/2) ، ولمزيد بيان، انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (91/2).

(2) انظر: الراغب الأصفهاني، المفردات (443)، ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (243/3).

(3) مسائل أحمد بن حنبل – رواية إسحاق بن هانئ (166/2).

(4) أبو يعلى، محمد بن الحسين الفراء (1410هـ – 1990م) العدة في أصول الفقه، تحقيق: د. أحمد بن علي بن سير المباركي، الطبعة2، (684/2).

(5) الجصاص، أحمد بن علي أبو بكر الرازي الحنفي (1414هـ – 1994م) الفصول في الأصول، الكويت: وزارة الأوقاف الكويتية، الطبعة 2، (373/1).

(6) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: {صخ صم ضج ضح ضخ } ، (ص: 252–253).

(7) ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الإشبيلي (1406هـ) قانون التأويل، تحقيق: محمد السليمان، جدة: دار القبلة، .الطبعة1، (ص:666)

والمتشابه: مُقَابِلُه؛ وهو الوارد بصفة الإشكال".

المسألة الثانية: جواز التكليف بالمُتشابه، والمُجْمل، والفرق بينهما

قبل أن نقف على رأي ابن ناصر الدين، نُعرف بالمجمل، ومعنى جواز التكليف به

المجمل لغة: من أَجْمَلَ الأمر؛ إذا لم يُفصِّل فيه، فيترتب عليه الإبهام، وقيل: من أجمل الحساب؛ إذا جمعه دون تفصيل؛ وكلا الأمرين يترتب عليهما: الإبهام، ولذا عُرف المُجمل بالمُبهم.

واصطلاحًا[1]: "ما له دلالة على أحد معنيين، لا مزية لأحدهما على الآخر، بالنسبة إليه".

وقيل: "ما لم تتضح دلالته".

ومعنى جواز التكليف به: أن يُخاطب الشرع المكلفين، بأمر غير واضح لهم؛ فيجب عليهم السعي لإيجاد النص المُبيِّن، هذا في المُجمل، أما في المُتشابه؛ فرأي ابن ناصر الدين: الإيمان به فقط، دون البحث عن مُبيِّن، وأعتقد أنه يقصد المُتشابه المُطلق، وهي المسألة الثالثة.

قال– رحمه الله – [2]: "وكما أنه يصح ورود الخطاب بالمجمل؛ فكذلك بالمتشابه؛ لأن المُجمل هو: مالا يتعين المراد من جهته، ولا يتبين المقصود من جُملته، والمتشابه كذلك، لكن الفرق بينهما: أن المجمل يتعلق به التكليف، فيحتاج فيه إلى طلب ما يُبيِّنُ عنه، ولذلك لم يجب البيان قبل الحاجة إليه، ولا يجوز تأخيره عن وقت الحاجة إليه.

وأما المُتشابه: فلا يتعلق به تكليف سوى الإيمان به[3]، فلم يحتج فيه إلى بيان معناه، فنكلف طلبه، قال الله عز وجل في المتشابه: { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ } وهذا المُتشابه أحد الوجوه الخمسة التي أُنزل الله القرآن عليها.

المسألة الثالثة: المُتشابه في القرآن لا يعلمه إلا الله:

هذه المسألة اختلف فيها أهل العلم، كما سيُشير إليه الحافظ ابن ناصر الدين، وقد رجَّح عدم عِلم المُتشابه، واستدَّل عليه بنص الآية، وبحديث عائشة رضي الله عنها ، وأشير هنا إلى سبب الخلاف في هذه المسألة[4]:

---

(1) الزركشي، محمد بن بهادر(1421هـ – 2000م) البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق: د. محمد محمد تامر، بيروت: الناشر دار الكتب العلمية (43/3).

(2) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لقد من الله على المؤمنين } ، (ص:255)، وقد وضع المحقق النص في حاشية مُستقلة للكتاب إشارة إلى أوراق غير مرتبة ضمن تفسيره، وهي له قطعًا، للتكرار بينها، وبين كلامه في أكثر من موضع.

(3) الزركشي، محمد بن بهادر، البحر المحيط في أصول الفقه (191/2).

(4) ابن السمعاني، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى (1418هـ 1997م) تفسير القرآن، تحقيق: ياسر بن إبراهيم، وآخر، الرياض: دار الوطن، الطبعة 1، (296/1)، الغزنوي، محمود بن أبي الحسن النيسابوري (1419 هـ - 1998 م) باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن، تحقيق: سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ابن عاشور، التحرير والتنوير (97/1)، واهتم الأصوليون بهذه المسألة، وتوجيه الخلاف فيها، فانظر: الزركشي، محمد بن بهادر، البحر المحيط في أصول الفقه (192/2-195)، ابن

إن سبب الاختلاف في هذه المسألة، في فهم الآية الكريمة: { هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ } [سورة آل عمران:7]. والإجمال الواقع فيها من جهة الوقف، ومن جهة حرف "الواو" في الآية.

فمن يقول: إن الوقف تامٌ على قوله تعالى: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ }، ثم ما بعده استئناف منفصل، في قوله سبحانه: { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ }؛ فإنه يُفَسِّرها: بأن المتشابه قد استأثر الله بعلمه، فلا يعلمه غيره، ولذا وصف الراسخين في العلم بأنهم يقولون: { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ }، فمن دونهم من باب أولى.

ومن قال بأن الوقف على قوله سبحانه: { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ }، والواو عاطفة، فإنه يُفَسِّرها: بأن الرَّاسخين في العلم يعلمون المُتشابه؛ ولذا وصفهم بالراسخين[1].

وأختم بقول القَفَّال الشاشي، وغيره: "القولان محتملان، ولا يُنكر أن يكون في المتشابه ما لا يُعلم، ويكون الغرض منه الإيمان، وأنه من عند الله"، "وقيل: الرَّاسخون يعلمون على الجملة، والله يعلم على التفصيل، وبهذا يصح القولان جميعًا، ولا يتنافيان، وهو الذي يعضده الدَّليل؛ لأن الصحابة قد خاضوا في التأويل"[2] و قال رحمه الله [3]: "وقد اختلف العلماء في تأويل المتشابهات المشار إليها في الآية:

فذهب خلقٌ من الأئمة[4] إلى: أنه لا يعلم تأويله إلا الله، وممن روي عنه ذلك من الصحابة: عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله ابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو أمامة الباهلي – رضي الله عنهم– ".

وقال رحمه الله [5]: "وجاء عن عمر بن الخطاب ﷺ قوله من رواية الحسن البصري – رضي الله عنه– ، قال: " كان عمر ﷺ يضرب على بعض التفسير للقرآن، ويقول: "إنما هلك من كان قبلكم بالتأويل، وإن

النجار، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز (1418هـ – 1997م) شرح الكوكب المنير، تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد، الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة2، (153/2)، الشنقيطي، محمد الأمين الجكني (2001م) مذكرة في أصول الفقه، المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحِكم، الطبعة 5، (ص75-76).

(1) الشاطبي، أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي (1417هـ - 1997م) الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: مشهور سليمان، السعودية: دار ابن عفان، الطبعة1، (165/5)، وانظر: الزركشي، محمد بن بهادر، البحرالمحيط في أصول الفقه (192/2).

(2) الزركشي، محمد بن بهادر، البحرالمحيط في أصول الفقه (193/2)، نقل الأول عن القفال الشاشي، والثاني بصيغة الإبهام.

(3) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لقد من الله على المؤمنين } ، (ص:252)

(4) ونُسب في أغلب المراجع التي أشرتُ لها في هذه المسألة للجمهور، بل قال ابن السمعاني عن قول المخالفين: قول شرذمة!

(5) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لقد من الله على المؤمنين } ، (ص:255) حاشية.

القرآن أُنزل على خمسة أجزاء: جزء حلال، وجزء حرام، وجزء أمثال، وجزء محكم، وجزء متشابه، فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، واعتبروا بأمثاله"[1].

وروي عن أنس بن مالك ﷺ أنه سمع عمر بن الخطاب ﷺ يقرأ هذه الآية: { وَقَضْباً ، وَزَيْتُوناً } [سورة عبس:28-29] إلى قوله: { وَفَاكِهَةً وَأَبّاً } فلما انتهى إلى ذكر الأبّ، قال: كل هذا قد علمناه، فما الأبّ؟ ثم ضرب عصاه بالأرض، وقال: " نعم، والله، إن هذا لهو التكلف، { اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ } [سورة الأعراف:3]، ما تبين لكم من هذا الكتاب فعليكم به، وما لا فدعوه"[2].

وعن عمرو بن عثمان بن عبد الله بن مَوْهَب، ان سمع عمر بن عبد العزيز ﷺ يقرأ: { وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ قال: انتهى علمُهم إلى أن قالوا: { يَقُولُونَ آمَنَّا } "[3].

وذهب جماعةٌ من أهل العلم[4] إلى أن المُتشابه في القرآن المُشار إليه في قوله تعالى: { وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } إلى أنه يعلم تأويله العلماء... والبحث عنه، واحتجوا بأمور، منها:

أن القرآن أُنزل بلسان عربي مبين، والمبين لا يكون مُشكِلا، ووصف القرآن بأنه تبيان لكل شيء، وهذا ينفي اشتباه البيان فيه، لخروج المتشابه المُشْكِل عن وقوع التبيان فيه.

والحجة عليهم من الآية: قال الله عز وجل: { مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ } [سورة آل عمران:7].

صح عن ابن أبي مُليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة – رضي الله عنها– قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: إلى قوله: { الالباب} قالت: قال رسول الله ﷺ : " ((فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الذي سمى الله فاحذروهم[5])).

فالمصطفى زاده الله شرفًا، قد شفى في معنى هذه الآية، وكفى، إذ حذَّر ممن يتبع المتشابه، فلو كان اتباع تأويل المتشابه جائزًا؛ ما حذر ممن يفعله، وأيضًا جل الله عز وجل الذين يتبعون تأويل المتشابه أهل زيغٍ

(1) لم أقف عليه.

(2) أخرجه ابن وهب، أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم المصري (2003م) تفسير القرآن من الجامع لابن وهب، تحقيق:ميكلوش موراني، بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة 1، (122/2)، سعيد بن منصور(1417 هـ – 1997 م.) التفسير من سنن سعيد بن منصور، دراسة وتحقيق: د سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، السعودية: دار الصميعي للنشر والتوزيع، الطبعة 1، (181/1)، الطبري، جامع البيان (229/24)، الطبراني، سليمان بن أحمد (1405 – 1984م) مسند الشاميين، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة 1، (156/4)، وصحح إسناده ابن كثير، وغيره، انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (348/8).

(3) الطبري، جامع البيان (183/3).

(4) وهو قول المعتزلة، وجماعة من المتأولين، انظر المراجع في هامش توجيه الخلاف في الآية، في مطلع هذه المسألة.

(5) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، بابُ {منهُ آياتٌ مُحكماتٌ} (رقم:4547)، ومسلم، في العلم باب النهي عن اتباع متشابه القرآن (رقم:2665).

وفتنة، فلو كان المتشابه مما يُوصِلُ إلى عِلمِه؛ لوجب تتبُّعه، ولو وجب تَتَبُّعُه؛ لكان فاعله ممدوحًا، غير مذموم بنسبته إلى الزيغ والفتنة.

وجعل الله الفتنة مُعلقة بانتفاء تأويله، فلو كان التأويل مما يُوصِل إلى عِلمِه؛ لم يكن طلبه محظورًا، وزيغًا، وفتنة.

وأيضًا: ففي قول الله عز وجل: { وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ } نفيٌ، وإثبات، فأثبت لنفسه: علم تأويله، ما نفاه سبحانه عن غيره..."[1] ومن الأمثلة التي ذكرها الحافظ ابن ناصر الدِّين للتشابه الواقع في القرآن الكريم من جهة الإجمال[2]: "ما يجيء على الإطلاق فيُرجع فيه إلى المُقيّد، كقوله تعالى: { إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً } [سورة الزمر:53]، يرجع فيه إلى قوله تعالى: { إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ } [سورة النساء:48]، وإلى قوله تعالى: { وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ } [سورة طه:82] الآية.

وقال[3] : "ولم نُكَلَّف طَلَبُ مَعْناه، وإنما كُلِّفنا الإيمان به لوجهين:

أحدهما: ليظهر آثار نقصنا، وقصور علمنا عن كمال العلم؛ كما قالت الملائكة: { سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا } [سورة البقرة:32].

والوجه الثاني: ليختبر الله بذلك حسن طاعتنا، وقوة إيماننا في التصديق بذلك، والتسليم له، وردُّ عِلمه إلى عَالِمه"".

المطلب التاسع: المتشابه اللفظي

النوع الأول: ما يقع التشابه فيه بزيادة، ونقص، وتقديم، وتأخير:

قال – رحمه الله– : "والثاني من المتشابه في القرآن: المتشابه في اللفظ[4]، وقد صنَّف فيه جماعة من أئمة القُراء، ومِن أغربها مصنفاً كتاب المتشابه لإبراهيم بن خالد الدقاق[5]، وهو يروي عن أصحاب أبي الوليد الطيالسي، وأبي نعيم الفضل بن دُكين، وأضرابهما. قال في كتابه المذكور في بابٌ ما في كتاب الله من

(1) انقطع هنا كلام الحافظ ابن ناصر الدين (ص:255) الحاشية.

(2) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لقد من الله على المؤمنين }، (ص: 236–237).

(3) المرجع السابق (ص: 253).

(4) السيوطي، جلال الدّين، الاتقان في علوم القرآن، (ص:642، ط. مؤسسة الرسالة، عرفه بقوله: " والقصد به: إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة، بل تأتي في موضع واحد مقدمًا، وآخر: مؤخرًا ...، أو في موضع بزيادة، وفي آخر بدونها...، أو في موضع مُعرَّفًا، وفي اخر: مُنكَرًا، أو مفردًا، وفي آخر جمعًا، أو بحرف، وفي آخر بحرف آخر، أو مُدغمًا، وفي آخر مفكوكًا ....".

(5) لم أتعرف عليه، ولا على كتابه، وممن ألف في هذا النوع: الكرماني، محمود بن حمزة، البرهان في توجيه متشابه القرآن، لما فيه من الحجة والبيان، الرازي، درة التنزيل وغرة التأويل، أبو جعفر بن الزبير، ملاك التأويل، ابن جماعة، بدر الدّين، كشف المعاني عن متشابه المثاني، وغيرهم.

حرف واحد في ترجمة: ومن سورة آل عمران، قال: وفيها: { إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو} الآية [سورة آل عمران:164].: ليس في القرآن مثله[1]، والباقي: {رَسُولاً منهم }، كما في آية البقرة: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ } [الأية:129]، وفي آية الجمعة كذلك: { هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ } [الأية:2].

وفي آية آل عمران المتشابه أيضاً من وجه آخر، وهو قوله تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [الأية:164].

فلفظة {وَيُزَكِّيهِمْ } هنا قبل قوله: { ويعلمهم الكتاب والحكمة}، وكذلك مرتبتها في سورة الجمعة، وأُخِّرت في آية سورة البقرة بعد قوله:{ ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم}، وتقدم توجيه ذلك. والله ´ أعلم.

النوع الثاني: التشابه اللفظي الموضوعي:

الوجه الأول: التشابه في موضوع الآيات: قال – رحمه الله – [2] : "ومن أنواع المتشابه: أن هذه الآية أشبهت فاتحة الكتاب من وجه، لأن فاتحة الكتاب افتتحت بذكر الله وحمده، والإشارة إلى نعمه على خلقه مع الثناء عليه، وخُتمت بذكر أهل الغضب والضلال ممن ساق الله الشقاوة إليه.

وكذلك هذه الآية الشريفة، افتتحت بذكر الله ومَنِّهِ على المؤمنين بالإنعام ببعثة سيد المرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وخُتمت بِذِكْر الإنقاذ من الضَّلال المبين.

الوجه الثاني: التشابه في موضوعات السور: قال – رحمه الله –: "ومن المتشابه: متشابه السور، وهو على قسمين:

أحدهما: أن تشبه قصة سورةٍ قصة أخرى: كالأنفال وبراءة. قال ابن عباس –رضي الله عنه– : "قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى سورة الأنفال وهي من المثاني، وإلى سورة براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم فوضعتموها في السبع الطوال، فما حملكم على ذلك"؟ قال: "كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه من السور ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه الشيء دعا بعض من يكتب له فيقول: ضعوا هذه في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وإذا أنزلت عليه الآيات قال: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا أنزلت عليه الآية قال: ضعوا

(1) في المطبوع بعد كلمة: مثله: "– يعني الدقاق–"، فإن لم يكن وهمٌ من الناسخ، فيكون تنبيهًا أنه ينقل من الكتاب.

(2) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، (ص:243).

هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا، وكانت سورة الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت سورة براءة من أواخر ما أنزل من القرآن، قال: فكانت قصتها شبيهاً بقصتها، فظننا أنها منها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها في السبع الطوال"[1].

والقسم الثاني: من متشابه السور: في عدد الآي: كسورة الفاتحة وسورة أرأيت: كل منهما سبع آيات، وكسورة يوسف والإسراء والأنبياء، كل منهن مائة آيةٍ، وإحدى عشرة آية، وكسورة الجمعة، والمنافقين، والضُّحى، والعاديات، والقارعة، كل منهن إحدى عشرة آية، وكسورة العصر، والكوثر، والنصر، كل منهن ثلاث آيات؛ وهذا أقل المتشابه من السور في عدد الآي، وأكثر ما في متشابه السور عدداً سورة براءة، وطه، كل منهما مائة آية وثلاثون آية.

المسألة الثالثة: المتشابه الدَّلالي:

النوع الأول: الأشباه والنظائر "التصريف": قال – رحمه الله –[2]: "**ومن المتشابه في القرآن: الأشباه والنظائر**[3]، وقد وقع في هذه الآية الشريفة من ذلك عِدَّة، واستعمال ذلك في الكلام المنثور والمنظوم: من البلاغة، وهو أحد أصناف البيان، ويُسَمّى التصريف[4]، وليس المراد التصريف الذي هو الكلام على أسماءٍ، وأفعالٍ، يكون فيها أحد حروف العلة التي هي: الياء، والواو، والألف، ويجمعها قولك: آوي، المذكور في قول الشاعر[5]: أطوف ما أطوف ثم آوي ... إلى بيتٍ قعيدته لكاع

وإنما المراد التصريف الذي هو أحد أصناف البيان، الذي ذكرها أبو علي الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني، في كتابه "ضروب نظم القرآن"، وأبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي صاحب "المجمل" في كتابه "فيما ترجع إليه علوم الإسلام من الفهم والإفهام"، وغيرهما، فذكروا من أصناف البيان:

(1) أخرجه أحمد في المسند، مسند العشرة المبشرين بالجنة ((رقم: 401)، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب من جهر بها ((رقم: 786)، والترمذي في كتاب تفسير القرآن، باب سورة التوبة ((رقم: 3086)، وقال: حديث حسن.

(2) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، (ص: 243).

(3) هذه اللفظة "الأشباه" إن ضُمت إلى لفظة: "النظائر" انصرفت غالبًا إلى كُتب القواعد الفقهية، فهي المنتشرة بهذا الاسم؛ لأن الأشباه هي النظائر، فهم يضمون القواعد المتشابهة، والمتناظرة، وأما في علوم القرآن؛ فإنهم يسمونها: "الوجوه والنظائر"، وهي تُفيد التمايز، وفيها مصنفات كثيرة، بدءً بتفسير مقاتل بن سليمان، المتوفى سنة:150ه، فلعل ابن ناصر الدين، راعى التصاف لفظة "الأشباه" بالمتشابه، ثم ظهرت هذه اللفظة "الأشباه" عند ابن العماد، محمد بن محمد بن علي، المتوفى سنة: 887ه في كتابه "كشف السرائر في الأشباه والوجوه والنظائر"

(4) من أقدم ما أُلف فيه: التصاريف لتفسير القرآن، مما اشتبهت أسمائه، وتصرَّفت معانيه، ليحيى بن سلام، أبي ثعلبة التيمي، تحقيق: هند شلبي، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، د.ط1979م، وعنوانه يُنبئ بمضمونه، ومضمون كتب الوجوه والنظائر عند المفسرين.

(5) هو الحُطيئة، والبيت من الوافر، انظر ملحق ديوانه: ((ص:156)، ولكاع: تُقال ذمًا، للدنئ اللئيم الأحمق.

التصريف: "وهو القليل من اللفظ عُرف من المعاني بزيادة تقع في البناء الأول، وهو على قسمين:

القسم الأول: تصريف المعنى في الدلالات المختلفة: كهذه الآية الشريفة، ذكرت كما تلوناها أولاً في سورة آل عمران: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ } [سورة آل عمران:164] الآية، وذكرت في سورة الجمعة: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ} [سورة الجمعة:2]، وذكرت في سورة البقرة في الدعوة الإبراهيمية، قال الله تعالى إخباراً: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ} [سورة البقرة:129].

فآية آل عمران ذكرت تذكيراً لبعض نعم الله على المؤمنين، وحثاً لهم على شكرها، وإشارة إلى إجابة الدعوة الإبراهيمية التي ذكرت في سورة البقرة.

وقد ذكرت آية البقرة إخباراً عن شرف نبينا ‘ وأنه دعوة أبيه إبراهيم–عليه السلام– ، وإظهاراً لكرامة هذه الأمة المحمدية.

وآية الجمعة ذكرت بعد تسبيح الله وتمجيده، وتقديسه، وذكر عدة من أسمائه الحسنى، تعظيماً لشأن هذا الرسول المبعوث ﷺ، فاختلفت الدلالات في المعنى الواحد، وهذا هو القسم الأول من التصريف.

وقال في موضع آخر[1]: "وفي آية الدعوة الإبراهيمية قال تعالى إخباراً: {يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ }، وقال تعالى في هذه الآية: {وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }.

والتزكية هي: التقديس والتطهير، والنماء والتكثير، ووجه تأخير التزكية في آية الدعوة الإبراهيمية –والله أعلم–: أن التطهير والتقديس لا يكون ذلك إلا بعد الإيمان وتلاوة القرآن، وتعليم الكتاب والحكمة، وطلب ذلك أهم من طلب التزكية، وتقديم الأهم أولى وأعلى، فحسن تقديم طلب تعليم الكتاب والحكمة على التزكية هنا.

وأما تقديم التزكية على تعليم الكتاب والحكمة في آية الإعلام بإجابة الدعوة الإبراهيمية: فإن الله عز وجل أثبت للمدعو لهم –وهم هذه الأمة– الإيمان أولاً بقوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} فحصلت التزكية بالإيمان، وأي تزكيةٍ أعظم منها! فقدم ذكرها في هذه الآية قبل ذكر تعليم الكتاب والحكمة.

ووجه آخر: لما كان متعلمو العلم على قسمين: صالحون وغير صالحين، والصالح يفيد فيه التعليم، ويبعثه العلم على العمل أكثر من غيره، لصلاحه الذي هو التزكية، وكان صلاحه متقدماً على طلب العلم، فحصلت له الفائدة بذلك، وهذه الأمة اختارها الله على سائر الأمم قبل بعثة نبيها ﷺ فيها، فلما بعث فيها كانت زاكيةً، كما أشير إليه في الآية بقوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}، فقدم الإخبار بالتزكية على التعليم

(1) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، (ص: 234

هنا، وأُخِرت في آية الدعوة الإبراهيمية؛ للاهتمام بطلب تعليم الكتاب والحكمة، على طلب التزكية. والله أعلم بما أراد".

وأما القسم الثاني: فهو تصريف المعنى في المعاني المختلفة، وهو عقدها به على جهة المعاقبة[1].

وقال– رحمه الله تعالى– : " ومن وجوه الكلام على الآية: النظر في تصرف معاني الألفاظ، ويقال له في فن البلاغة: التصريف البياني الذي ذكره أبو علي الحسن ابن يحيى بن نصر الجرجاني في كتابه "ضروب نظم القرآن"، وأبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي صاحب "مجمل اللغة" في كتابه "فيما ترجع إليه علوم الإسلام من الفهم والإفهام"، وغيرهما، فذكروا من أصناف البيان: التصريف، وهو القليل من اللفظ يعرف من المعاني بزيادة، فتارة يكون تصريف المعنى في الدلالات المختلفة[2]، وتارة يكون التصريف تصريف المعنى في المعاني المختلفة.

فالأول: كقصة موسى– عليه السلام– ذُكرت في القرآن في غير ما موضعٍ، من ذلك في سورة الأعراف، والشعراء، وطه، لوجوهٍ من الحكمة، منها: التصرف في البلاغة من غير نقصانٍ عن أعلى مرتبتها، ومنها: تمكين العبرة والموعظة، ومنها: ظهور الحجاج على الكفار بالدلالات المختلفة في المعنى الواحد[3].

فهذه الآية الشريفة ذكرت في ثلاث سور من القرآن: في البقرة، وآل عمران، والجمعة، وفي البقرة ذكرت مرتين في آية الدعوة الإبراهيمية {ربنا وابعث فيهم رسولاً} والآية الأخرى قوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ } [سورة البقرة:151].

ففي كل موضع من هذه المواضع الأربعة ذكرت بمعناها لدلالات مختلفة، والله أعلم".

والثاني من قسمي تصريف البيان: تصريف المعنى في المعاني المختلفة:

فقوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، دل معناه على زمنٍ مضى.

ثم شرع في بيان تصاريف بعض الألفاظ في الآية التي يُفسِّرها، وهي كالتالي[4]:

---

(1) التصريف في اللغة: الرجوع، والتغيير، ومنه قوله تعالى: صرف الله قلوبهم } [سورة التوبة:127]، وقوله: { وتصريف الرياح } [سورة البقرة:164]؛ أي صرفها من جهة إلى أخرى، انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة: صرف (342/3).و هو عند علماء البيان: تحويل المفردة إلى أمثلة مختلفة، لمعان مقصودة، لا تحصل إلا به، وهو من وجوه الإعجاز البلاغي، حيث يأتي في المعنى الواحد، بالدّلالات المختلفة، وهذا في أعلى طبقات البلاغة، وقوله: (على جهة المُعاقبة): أي صياغته في اشتقاقات مختلفة، تناسبه مناسبة قريبة، وترجع إليه في الاشتقاق. انظر: الرماني، أبو الحسن، علي بن عيسى (2020م) النكت في اعجاز القرآن ، تحقيق: عبد الله عباس الندوي ، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة1، (ص:65)، الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد (1997م) إعجاز القرآن، تحقيق: أحمد صقر، مصر: دار المعارف، الطبعة 5، (ص:272).

(2) وبهذا سماه الرُّماني في النكت في إعجاز القرآن، انظر المرجع السابق، وعنه: الباقلاني، إعجاز القرآن (ص:272).

(3) الرماني، النكت في اعجاز القرآن (ص:65).

(4) مواطن كلام الحافظ ابن ناصر الدين على الوجوه والنظائر، في كتابه: (ص:262-271 و 291-293 و 310-312 و 378)

(1) **المن:** قال – رحمه الله تعالى– [1] : "فالمن يطلق، وتصرف معانيه المختلفة بحسب الحال، فقوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } هذا من المن، الذي هو الإنعام والإحسان ابتداءً بغير سؤال، بل لمجرد من وإفضال، والمن أيضاً: اعتداد المعطي بصنيعته على من أعطاه، فيمن بعطيته عليه تقريعاً له، وهو المذكور في قوله تعالى:{ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى } [سورة البقرة:264].

وقول بعض السلف: "المَنُّ أخو المَنِّ"؛ فالمن الأول: امتنان المعطي بالعطية على من أسداها إليه تقريعاً له، والمن الثاني: القطع والهدم، فيكون معنى الأثر أن مَنْ مَنَّ بعطيته؛ فكأنما قَطَعَ وصول أجرها إليه، وَهَدَم البناء الذي أسَّسها عليه؛ لأن العَطِيَّة تَسُر من أُسديت إليه، وتوجب الأجر لمن أعطاها. والمن يسوء الذي أسديت إليه، ويوجب إثماً على المنان مع حبوط أجره الذي لو لم يمن لكان ثابتاً له. والمنة: القوة، وفي "كتاب الأضداد" للتوزي أن المنين يكون القوي أيضاً، فعيلاً، من المنة.

والمن أيضاً: الطل الحلو الذي ينزل على الأشجار والأحجار، فيكون كالصمغ يجتنى منه ويؤكل، وهو المشار إليه بقوله تعالى: { وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى } [سورة البقرة:57] قال مجاهد: "المن صمغه، والسلوى الطير" [2] والمن أيضاً: القطع والهدم، ومنه قوله تعالى: { فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ } [سورة التين]، فسره جماعة أنه غير مقطوع.

فالمن في هذه المواضع لفظه متشابه، ومعانيه مختلفة، وهذا من تصريف المعاني من اللفظ الواحد".

(2) **البعث:** قال – رحمه الله– [3]: "ومن هذا الباب: قوله تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً } فمعنى بعث هنا –والله أعلم– أرسل، يقال: بعثت الرجل في حاجة كذا، وإلى كذا، أبعثه: إذا أرسلته، وبعثته على كذا: إذا أرغبته فيه أن يفعله، ومصدر ذلك كله: البعث

وله وجوه أيضاً، منها: بعث الجند يُبعثون في الأمر، والبعث أيضاً: النشور من القبور. والبعث: القوم يؤمر بهم إلى مكان، ومنه الحديث: أن آدم عليه الصلاة والسلام يقال له يوم القيامة أخرج بعث النار، والبعث أيضاً: المبعث، ويقال له البعثة أيضاً، وهي رسالة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام المشار إليها بقوله تعالى في هذه الآية الشريفة: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً }.

---

(1) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، ((ص: 266).

(2) مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبرالمخزومي (1410هـ – 989م) تفسير مجاهد، تحقيق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل، مصر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، الطبعة 1، (ص:203)، وأورده البخاري مُعلقا في كتاب التفسير، باب قوله تعالى: { وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى }، وقال المصنف في مجالس في تفسير: { لقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، (ص:142 و236): "هكذا علقه البخاري في صحيحه بغير إسناد، وهو في تفسير شيخه محمد بن يوسف الفريابي: عن ورقاء، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد".

(3) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، ((ص: 266).

(3) الرسول: قال – رحمه الله تعالى– [1] : ومن الأشباه والنظائر أيضاً: الرَّسول[2]، وهو هنا نبينا محمدٌ عليه أفضل الصلاة والسلام، ويطلق الرسول أيضاً على المبعوث برسالةٍ ما، من ذكر أو أنثى، ويُطلق على من أُرسِل من الملائكة بأمرٍ ما، قال الله عز وجل: { الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [سورة فاطر :1].وقوله تعالى: { رُسُلاً } هو جمع رسول، ويجمع أيضاً على أَرْسُل[3].

(4) النفس: قال – رحمه الله –[4] : "ومن الأشباه أيضاً: قوله تعالى { مِّنْ أَنفُسِهِمْ } جمع نفس[5]، واختلف في المراد بها هنا، فقيل: العرب، وقيل: المؤمنون، وقال أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي: "من أنفسهم بالإيمان والشفقة، لا بالنسب، كما يقول القائل: أنت نفسي"[6]انتهى. فإن أريد بالمؤمنين العرب فمعنى { مِّنْ أَنفُسِهِمْ }: الولادة، قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير { مِّنْ أَنفُسِهِمْ }: قد ولدتموه يا معشر العرب، وإن أريد بالمؤمنين كلهم: فيكون –كما قاله أبو إسحاق، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي–: "من أنفسهم بالإيمان والشفقة، لا بالنسب، كما يقول القائل: أنت نفسي"[7] وتطلق النفس أيضاً ويراد بها نفس الإنسان وغيره التي يقوم بها جسمه[8]، والخلاف فيها مشهور: هل هي الروح أم لا؟

وقيل: الروح بها الحياة، والنفس بها العقل، وعلى هذا قيل إذا نام: قبض الله نفسه، وإذا مات: قبض الله روحه.

---

(1) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، ((ص: 266).

(2) الراغب الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد، (1412هـ) المفردات في غريب القرآن، الطبعة الأولى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دمشق بيروت: دار القلم، الدار الشامية (ص:353)، ولم يذكره غيره، والمصنف هنا.

(3) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (1417هـ 1996م) المخصص، الطبعة الأولى، تحقيق: خليل إبراهم جفال، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (416/3)، وانظر: لسان العرب، "مادة: رسل" (283/11).

(4) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، ((ص: 266–267).

(5) ابن سلام، يحيى بن سلام، التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه (ص:287)، وهو أقدم من ذكرها، فلا توجد عند مقاتل، وقال: تأتي على سبعة أوجه.

(6) الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم، أبو إسحاق، الكشف والبيان في تفسير القرآن، الطبعة الأولى، تحقيق: سيد كسروي حسن، بيروت: دار الكتب العلمية، (181/2).

(7) المرجع السابق (ص: 292).

(8) يدل على ذلك قوله تعالى: { وَلَا تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ } [سورة الإسراء:33].

وحديث النوم عن صلاة الصبح في الوادي[1] يرد على هذا، ويُثْبِت أن الروح والنفس شيء واحد"[2].

(5) **التلاوة**[3] : قال – رحمه الله –[4] : "ومن الأشباه: قوله تعالى: { يَتْلُو } معناه هنا: يَقْرَأ، يقال: تَلَوْتُ القُرآن؛ إذا قرأته؛ كأنك أتْبَعت آيةً في إثر آيةٍ قراءةً، والمصدر: التِلاوة –بكسر أوله– ويقال: التُلاوة بالضم، لغتان، ويتلو أيضاً: يُخبر، يقال: تلا الخبر يتلوه؛ إذا أخبر به، ويتلو الشيء أيضاً: يتتبعه، تَلْواً، فيهما".

(6) **الآية**: قال – رحمه الله –[5] : "ومن الأشباه أيضاً: قوله تعالى{ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ} : الآيات هنا فُسرت بالقرآن، وآي أيضاً: جمع آية، والآية "إنما سميت آيةً؛ لأنها كلام متصل إلى انقطاع، وانقطاع معناه انقطاع قصةٍ، ثم قصةٍ"، قاله أبو عبيدة في كتاب مجاز القرآن[6].

(7) والآية أيضاً: العلامة، ومنه الحديث: ((آية المنافق ثلاثٌ))[7]، والآية أيضاً: المعجزة.

(8) **الزكاة**: قال – رحمه الله –[8] : ومن الأشباه أيضاً في الآية: قوله{ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ } ، أي يصلحهم، فيما ذكره مقاتل بن سليمان وغيره، ومنه قوله تعالى: {ويزكيهم } [سورة النور:21]، فالزكاة: الصلاح، والزكاة أيضاً: كلمة التوحيد، كما فُسر قوله تعالى: { الين لا يؤتون} [سورة فصلت:7]: "لا يشهدون أن لا إله إلا الله"[9].

---

(1) إشارة لحديث أبي هريرة t: " أنّ رسول اللهِ ﷺ حين قفل من غزوة خيبر، فسار ليله، حتَّى إذا أدركهُ الكرى عرَّس، وقال لبلال: اكلأ لنا اللَّيل فصلَّى بلال ما قُدِّرَ له، ونامَ رسول اللهِ ﷺ وأصحابه، فلمَّا تقارب الفجر، استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالًا عيناه وهو مستندٌ إلى راحلته، فلم يَستيقظ بلال ولا أحد من أصحابه حتَّى ضربتهم الشَّمس، فكان رسول اللهِ ﷺ أوَّلهُم استيقاظًا، ففزع رسول اللهِ ﷺ فقال: أي بلال؟ فقالَ بلال: أخذ بنَفسي الذي أخذ بنفسك، بأبي أنت وأمّي يا رسول الله، قال: اقتادوا فاقتادوا رواحلهم شيئًا، ثمَّ توضَّأ رسول اللهِ ﷺ، وأمر بلالًا فأقام الصَّلاة، فصلَّى بهم الصُّبح، فلمَّا قضى النَّبي ﷺ الصَّلاة قال: ((من نسيَ صلاة، فليصلِّها إذا ذكرها؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قال: { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } [سورة طه])). أخرجه مسلم في كتاب المساجد، ومواضع الصلاة، بابُ قضاء الصلاة الفائتة، واستحباب تعجيل قضائها ((رقم:309).

(2) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، (ص: 266، و 406).

(3) ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (1404هـ – 1984م) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، تحقيق: المحقق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، بيروت: مؤسسة الرسالة، (ص:222).

(4) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، ((ص: 267-268).

(5) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، ((ص: 268).

(6) مجاز القرآن، أبو عبيدة، معمر بن المُثنى ((ص:5)، تحقيق: محمد فواد سزكين، القاهرة: مكتبة الخانجي، د.ط:1381هـ.

(7) حديث أبي هريرة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: ((آيةُ المُنافق ثلاثٌ: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخْلَفَ، وإذا اؤْتُمن خان))، أخرجه البخاري في الأدب، بابُ قول الله تعالى: {ﭐ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ}، وما يُنْهى عن الكذب (رقم: ٦٠٩٤)، ومسلم في الإيمان، بابُ بيان خصال المُنافق (رقم:107).

(8) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: {صخ صم ضج ضح ضخ}، ((ص: 268).

(9) أخرجه ابن جرير في تفسيره (24/ 97)، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وعلَّقه البخاري في صحيحه بصيغة الجزم، انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب سورة براءة، وقال مجاهد: " لا يزكون أعمالهم، أي ليست زاكية"، وقيل: " لا يطهرونها بالإخلاص"، وعن الحسن: " لا يؤمنون بالزّكاة، ولا يقرون بها "، وقال الضحاك: " لا يتصدقون، ولايُنفقُون

والزكاة أيضاً: التطهير، والزكاة أيضاً: النماء والزيادة، والزكاة: صدقة الفرض المشهورة، والزكاة أيضاً: البركة والمدح، ويقال أيضاً: زكا الرجل: صار عدلاً مرضياً، وزكا أيضاً: أخصب، وزكا أيضاً: تنعم.

(9) الكتاب: قال – رحمه الله– [1] : "ومن الأشباه في الآية: قوله تعالى: { وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } المراد به القرآن، وهو بمعنى المكتوب، مصدر سمي به المفعول، ولم يكن مكتوباً وقت نزوله على النبي ﷺ ، مع أنه أطلق عليه ذلك، لكن من قواعد كلام العرب أنهم تارةً يصفون الشيء بما هو ملابسٌ له حقيقةً، نحو: زيد قائم، إذا كان قائماً حالة الإخبار عنه، وتارة يصفون الشيء بما يؤول إليه مجازاً، كقول النبي ﷺ : ((مَن قَتَل قَتِيلاً؛ فَلَهُ سَلَبُه))[2]، فالقتيل: لا يُقتل، وإنما عَبَّر عنه بما يصير إليه، وتارة يصفون الشيء بما كان عليه أولاً، كقول الله عز وجل: ﴿وَآتُواْ الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ﴾ [سورة النساء:2]، ولا يُسمى اليتيم بعد بلوغه يتيماً؛ إلا باعتبار ما كان عليه.

والقرآن –جل منزله– لم يكن وقت نزوله على النبي ﷺ مكتوباً وإنما ذلك باعتبار أنه كان مكتوباً في اللوح المحفوظ، قال الله عز وجل: { بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ، فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ } [سورة البروج]، ويحتمل أنه سمى كتاباً باعتبار ما يؤول إليه، لأنه جمع بعد نزوله وكتب، والأول أظهر؛ لأن أبا بكر الصديق وغيره – رضي الله عنهم– لما امتنعوا من كتابة القرآن حين اجتمعوا عند أبي بكر – رضي الله عنه– لجمعه، لو فهموا عن الله عز وجل أن الكتاب سمي بذلك باعتبار مصيره مكتوباً في المستقبل ما امتنعوا من الكتابة أولاً. والله أعلم، ويطلق الكتاب أيضاً على الحُكم، وبه فُسِّر قول الله تعالى: { وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ } [سورة الأنفال:75] أي: في حُكمه، ومنه قول النبي ﷺ: ((لأقضين بينكما بكتاب الله)) والكتاب أيضاً: الفرض، ومنه قوله تعالى: {كِتَاباً مَّوْقُوتاً } [سورة النساء:103] وكتب الشيء: قضاه، وجعله، وأمر به، وفرغ منه، وقدره، وأحصاه، وغير ذلك من الوجوه".

في الطاعة"، وعن ابن السائب: لا يُعْطون زكاة أموالهم، قال: 'كانوا يحجون ويعتمرون ولا يزكون"، ويرى ابن تيمية أن المقصود بالزّكاة في قوله تعالى: ﴿ وَوَيْـــلٌ لِّلْمُشْـــرِكِيْنَ الَّذِيْـــنَ لا يُؤْتُوْنَ الزَّكَاة ﴾؛ ما هو أعم من الإنفاق، ولَن الآية تعم كل ما يحصل به للعبد الزّكاة، من تحقيق التوحيد، وفعل الأعمال الصالحة، وبذل الصدقات، وترك السيئات وغيرها، انظر: مجموع الفتاوى (633/10)، ويُنظر: المارودي، النكت والعيون (5/ 169)، وابن الجوزي، زاد المسير (914/7)، تفسير ابن كثير (3094/7)، تفسير القرطبي (298/15)، فتح الباري (3/ 313).

(1) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ((ص: 269-270).

(2) أخرجه البخاري في الجهاد، باب من لم يخمس الأسلاب (رقم: 3142)، ومسلم في الجهاد، باب استحقاق القاتل سلب القتيل (رقم: 1752) بلفظ مُقارب.

(10) الحكمة: قال – رحمه الله–[1] : "ومن الأشباه أيضاً في الآية: قوله تعالى{وَالْحِكْمَةَ } هي هاهنا سنة النبي ﷺ، وبذلك فسَره ابن عباس –رضي الله عنه– فيما رواه عنه مجاهد، وروي عن قتادة وآخرين، وبه قال إمامنا الشافعي ﷺ، فقال في كتابه الرسالة من كتابه الأم –وهو أولها–: وقد فرض الله تعالى على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم فقال في كتابه: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ }"[2] .

وقال – رحمه الله– [3]: "والحكمة: لها معانٍ، منها: أن الحكمة ما يمنع من الجهل، ومنها: الإصابة في القول من غير نبوة، وأيضاً الحكمة: المواعظ والأمثال، فكل كلمة اشتملت على موعظة أو دعاء إلى مكرمة أو نهي عن قبيح فهي حكمة.

والحكمة أيضاً: العلم والفهم، وأيضاً القرآن، وأيضاً: تفسيره، وأيضاً: سنة النبي ﷺ قولاً وفعلاً. وبهذا فسرت الحكمة هنا في قوله تعالى: {ويعلمهم الكتاب} أي القرآن {والحكمة} أي السنة.

روي عن ابن عباس وغير واحد، وحكاه الشافعي عمن يرضى من أهل العلم وقال به.

وقوله تعالى: {وإن كانوا} أي المؤمنون {من قبل} أي من قبل بعثة هذا الرسول وهو نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام {لفي ضلال} وهو ضد الهدى، وأشير به –والله أعلم– إلى الكفر الذي كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأصنام وغيرها، وقوله تعالى: {مبين} أي ظاهرٍ لمن يعقله، كما أن جماعة ممن كان في الضلال قبل البعثة ظهر لهم ضلالهم من الإشراك فانتقلوا عنه إلى التوحيد، وبعضهم تحقق ضلاله وأنه ليس على شيء فأصر عليه بعد الظهور، { وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ } [سورة النور:40].

وقال في موضع آخر: "وقال يعقوب بن إبراهيم الدورقي في "تفسيره": حدثنا سعيد بن محمد، عن جويبر، عن الضحاك: {ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً} قال: يعني القرآن في هذه المواضع.

وتطلق الحكمة أيضاً على المواعظ والآداب، وعلى العلم، والعدل، والحلم، والمنع، والإتقان.

والحكمة في عرف الفلاسفة علومها، ولأن تسمى بلازم الحكمة أولى من أن تسمى بالحكمة، لما فيها من الدواهي الغائلة، والسموم القاتلة، ومن زعم أن حكمة الفلاسفة هي المذكورة في القرآن فقد تجرأ وافترى،

(1) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: {صخ صم ضج ضح ضخ}، (ص: 266).

(2) المرجع السابق (ص: 254).

(3) المرجع السابق: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، ((ص: 266).

وكذب فيما رأى، وإنما الحكمة المشار إليها في القرآن على وجوهٍ ذكرها الأئمة ومن صنف في الأشباه والنظائر. منها:

أن المراد بالحكمة في قوله تعالى: {ويعلمهم الكتاب والحكمة} سنة النبي ﷺ كما تقدم، وممن فسرها بذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وآخرون منهم: الشافعي –رحمه الله– ومعاني الكتاب والسنة كثيرة لا تعد، ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من جهة التفسير من طريق المنقول عن الأئمة المرضية، ومن التأويل الراجع إلى القواعد الشرعية والعقائد السنية، ومعاني اللغة ووجوه العربية، وإن انضم إلى ذلك معرفة المعاني والبيان والبديع كان بليغاً في فهم الحكم والآيات، وعلم الحجج والبراهين القاطعات"[1].

المطلب العاشر

الأمر والنهي

الأمر في اللغة: ضد النهي، وهو بمعنى الطلب[2].

الأمر اصطلاحًا: "استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء"[3].

النهي في اللغة: المنع، ومنه سُمي العقلُ نهية؛ لأنه يَنهى صاحبه عن الوقوع فيما يخالف الصواب ويمنعه عنه[4] والنهي اصطلاحًا: هو "استدعاء الترك بالقول على وجه الاستعلاء"[5].

تطبيقات الأمر والنهي عند ابن ناصر الدِّين :

وقال[6] : " وأما مأخذ الأمر والنهي من الآية، فمن مفهومها أيضاً من مواضع، منها: قوله تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً }، وهذا الرسول ﷺ قيل لنا في حقه: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [سورة الحشر:7] وفي قوله تعالى: { يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }، فالكتاب وهو القرآن، والحكمة وهي السنة مشحونان بالأوامر والنواهي".

(1) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (1، (ص:137، وينظر: لسان العرب (1، (ص:203

(3) ابن قدامة، ، روضة الناظر (62/2)، مذكرة في أصول الفقه (ص:187)، ولمزيد إطلاع، يُنظر :الإحكام للآمدي (6/3) الإبهاج (200/2)، التقرير والتحبير (363/1)، شرح الكوكب المنير (393/3)، إرشاد الفحول (279/1-280).

(4) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (395/5).

(5) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }؛ (ص: 467).

(6) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }؛ (ص: 467).

المطلب الحادي عشر

العام والخاص، والمُطلَق والمُقيَّد

العام لغة: الشامل، وهو يُطلق على المواضع، والذوات، فيُقال: عَمَّ الغيثُ المواضعَ؛ إذا أصابها كلها، وعَمَّ القومَ؛ إذا أصابهم جميعًا، ومنه، يُقال: العامة، والخاصة[1].

أما اصطلاحًا، فأحسن ما يُقال في العام: ""اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له، بحسب وضع واحد، دفعة واحدة، بلا حصر"[2].

وأما الخاص لغة: لفظٌ يدل على واحدٍ مُنفرد، والتخصيص: ما أُفرد أحدٌ به، و"الخصوص: التفرد ببعض الشيء، مما لا يُشاركه فيه الجملة، وذلك خلاف العموم[3]" واصطلاحًا: " قصر العام على بعض أفراده بدليل"[4].

والمطلق اصطلاحًا: "الدال على الماهية، بلا قيد"[5].

والمقيد اصطلاحًا: "هو المتناول لمعين، أو لغير معين، موصوف بأمر زائد على الحقيقة الشاملة لجنسه"[6].

تطبيقات العام والخاص، والمُطلَق والمُقيَّد عند ابن ناصر الدِّين :

قال[7] : " وأما العام المُطلق في الآية: ففي قوله تعالى: {وَيُزَكِّيهِمْ } فهو عام في كل ما تحصل به التزكية.

وأما العام المقيد في الآية: ففي قوله تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } فهو عام في كل مؤمن، لكنه قُيِّد بهذه الأمة؛ لقوله تعالى: { إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ }.

(1) انظر: الخليل، كتاب العين، مادة: عمّ (18/4)، ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (18/4).

(2) الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني، مذكرة في أصول الفقه (ص:243)، وهو مأخوذٌ من جملة تعريفات، فكان أضبطها لحد العام عند الأصوليين، ولمزيد إطلاع، انظر: السبكي، جمع الجوامع (ص: 44، ابن قدامة، روضة الناظر (8/2)، الزركشي، البحر المحيط (5/3).

(3) الفيروز آبادي، ، بصائر ذوي التمييز (547/2)، ولمزيد إطلاع، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب (27/7).

(4) السبكي، تاج الدين، عبد الوهاب بن علي (2003م.) جمع الجوامع، تحقيق: عبد المنعم خليل إبراهيم، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة2، (ص:47).

(5) المرجع السابق، (ص:53، ولمزيد إطلاع، يُنظر : ابن قدامة، ، روضة الناظر (9/2)، مذكرة في أصول الفقه (ص278)، الزركشي، البحر المحيط (5/3).

(6) ابن قدامة، روضة الناظر (102/2)، ولمزيد إطلاع، يُنظر: الزركشي، البحر المحيط (5/5)، مذكرة في أصول الفقه (ص278).

(7) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }، (ص: 467).

وأما الخاص في الآية: ففي قوله تعالى: { مِّنْ أَنفُسِهِمْ } والمراد –والله أعلم– العرب على أحد الأقوال، قال محمد بن سعد في كتابه "الطبقات"[1]: أخبرنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبيه، عن أبي صالح، عن ابن عباس – رضي الله عنه– في قوله تعالى:{ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ } [سورة التوبة:128]، قال: "قد ولدتموه يا معشر العرب".

ورواه أبو نعيم الأصبهاني في كتابه "دلائل النبوة" من طريق محمد ابن السائب، ولفظه قال: "ليس من العرب قبيلةٌ إلا ولدت رسول الله ﷺ: مضريها، وربيعيها، ويمانيها"[2].

وقال في موطن آخر[3]: " وكل موحد لله عز وجل مؤمن به، والمؤمنون وقع ذكرهم في القرآن عاماً وخاصًا، ومطلقًا ومقيدًا، فمن العام: قول الله عز وجل: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } [سورة الحجرات:10].

ومن الخاص: قوله عز وجل:{ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ } [سورة الفتح:29].

ومن المقيد: قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } [سورة الأنفال].

ومن المطلق: قوله تعالى في هذه الآية الشريفة: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً } الآية.

أطلق ذكر المؤمنين هنا –وإن كان خاصاً بهذه الأمة– ولم يُقيد بوصف ليشمل أقسامها الثلاثة المشار إليهم بقوله تعالى: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ } [سورة فاطر:32].

وهؤلاء كلهم مؤمنون، وهم هذه الأمة المشار إليهم بقوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً }.

فالظالم لنفسه هو: العاصي بترك مأمور أو ارتكاب محظور، والمقتصد: المؤدي للواجبات التارك للمحرمات، والسابق بالخيرات: المتقرب إلى الله بما يستطيع من واجب ومستحب، التارك للمحرمات والمكروهات.

وهذان القسمان داخلان في قول الله عز وجل: { أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ } [سورة يونس63،62].

---

(1) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع، الطبقات الكبرى، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: دار صادر، الطبعة1، (21/1).

(2) ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (1415هـ – 1995م) تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط، (95/3)، ولم أر الأثر في غيره، وقد عزاه في الدر المنثور (327/4) إلى عبد بن حميد، والحارث بن أبي أسامة في مسنده، وابن المنذر، وابن مردوية، وأبو نعيم في دلائل النبوة، وابن عساكر.

(3) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ }، (ص: 467).

وأما القسم الثالث –وهو الظالم لنفسه– معه من الإيمان والحسنات ما يقتضي الثواب عليه، ومعه من المعاصي والسيئات ما يقتضي العقاب عليه، ولا تخرجه معصيته من دائرة الإسلام، هذا مذهب جميع الصحابة وتابعيهم بإحسان وأهل السنة والجماعة القائلين: بأنه لا يخلد في النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان[1]، وقد جاء أن هذه الأقسام الثلاثة كلهم في الجنة..." [2]وقد ختم الحافظ رحمه الله الكلام بهذه المسألة العظيمة الجليلة، التي تُبَيِّن فضل رب العالمين – عَزَّ شأنه – على هذه الأمة المرحومة، ووسطيتهم في جميع أمورهم، وأعظمها في مسائل التكفير، التي تضرب في أصل الإيمان، وتُميِّز بين من أنعم الله عليهم، وبين المغضوب عليهم، والضآلين، فمن نعم الله على أهل السُّنة والجماعة أن هداهم لِمَا امتن به رب العالمين آ على هذه الأمة بينَ الأمم: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً } [سورة البقرة:143]، اللهم يا ولي الإسلام، وأهله: ثبتنا عليه حتى نلقاك.

المطلب الثاني عشر
المُجمل والمُبيّن

سبق الكلام في تعريف المُجمل، والمُبيّن في المطلب الثامن: المُحكم والمُتشابه.

تطبيقات المُجمل والمُبيّن في الآية: قال الحافظ ابن ناصر الدِّين[3]: "وأما المُجْمَل[4]في الآية: ففي قوله تعالى: { وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } فيه إجمال، واحتمال؛ لأن يكون قبل بعثة الرسول المشار إليه ﷺ، أو قبل تلاوته الآيات عليهم، أو قبل التزكية لهم، أو قبل تعليمهم الكتاب والحكمة، أو قبل هدايتهم للإيمان.

(1) ابن أبي العز، محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي (1418 هـ) شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: أحمد شاكر، السعودية: وزارة الشؤون الإسلامية، والأوقاف والدعوة والإرشاد، الطبعة 1، (ص:296)، ابن سعدي، عبد الرحمن بن ناصر (1425هـ –2004م) مختصر في أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، الزلفي: دار المتعلم للنشر، الطبعة 1، (ص: 7)

(2) أخرج الطبري، جامع البيان (465/20) عن ابن مسعود ﷺ قوله: " هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة؛ ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حسابًا يسيرًا، وثلث يجيئون بذنوب عظام حتى يقول: ما هؤلاء؟ وهو أعلم تبارك وتعالى، فتقول الملائكة: هؤلاء جاءوا بذنوب عظام إلا أنهم لم يشركوا بك، فيقول الرب: أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي، وتلا عبد الله هذه الآية: { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا }"، وعن ابن عباس ﷺ قال: " هم أمة محمد ' ورَبُّهم الله كل كتاب أنزله؛ فظالمهم يغفر له، ومقتصدهم يحاسب حسابًا يسيرًا، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب".

(3) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً }، (ص: 467).

(4) السبكي، تاج الدين، عبد الوهاب بن علي، جمع الجوامع، (ص:47)، وقال: "ما لم تتضح دلالته، (ص: 55).

وأما المبين[1] في الآية: ففي قوله تعالى: { إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً } هذا بيانٌ لِلمَّنِّ الذي امْتَّن الله تعالى به على المؤمنين.

وأما الناسخ[2]: فمن مفهوم قوله تعالى: { إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً } وقد اتفق المفسرون ووقع الإجماع عليه أن الرسول هنا هو نبينا خاتم الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله الهاشمي عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد نسخ الله تعالى ببعثته جميع الملل قبله إلا ما اتفقت عليه جميع الشرائع من توحيد الله عز وجل، وأصوله، وبعض الأحكام، كما هو معروف.

المطلب الثالث عشر

المنطوق والمفهوم

أولاً: المنطوق: المنطوق لغة: يُقال نَطَقَ، يَنْطِقُ، نُطْقًا؛ تكلم بصوت، وحروف، تُعرف بها المعاني[3]، والمنطق : الكلام، وكلام كل شيء مَنْطِقُه، ومنه قوله– تعالى–: { عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ }[4] [سورة النمل:16].

تعريفه اصطلاحًا: قال ابن ناصر الدِّين : "ما دل عليه اللفظ بغير واسطة في محل النطق"[5].

وهو قريبٌ من تعريفه عند الأصوليين: "ما دل عليه اللفظ في محل النطق"[6].

ثانيًا: المفهوم : المفهوم في اللغة مقابل للمنطوق، والمنطوق أصل للمفهوم، وهو اسم مفعول من فَهِمَ، يفْهم، من الفهم، وهو العلم بالشيء[7]، وقد عُرِّف من جهة اللغة: "تصور المعنى من اللفظ"[8].

تعريفه اصطلاحًا: عَّرفه ابن ناصر الدِّين بقوله: " ما دل عليه اللفظ في محل السكوت[9]"، أي ما دل عليه اللفظ لا في محل النطق[10]، كما هو تعريف عامة الأصوليين.

تطبيقات المنطوق والمفهوم عند ابن ناصر الدِّين : قال : " وإذا تدبرنا قوله تعالى: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ }

---

(1) السبكي، تاج الدين، عبد الوهاب بن علي، جمع الجوامع، (ص:57)، والبيان: إخراج الشيء من حيز الإشكال، إلى حيز التجلي".

(2) السبكي، تاج الدين، عبد الوهاب بن علي، جمع الجوامع، (ص:57)، والبيان: إخراج الشيء من حيز الإشكال، إلى حيز التجلي".

(3) القاموس المحيط (1195/1).

(4) انظر : اللسان (354/10).

(5) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } ، (ص: 489).

(6) الأحكام للآمدي (73/3)، الإتقان (68/2) إرشاد الفحول (302/1) المدخل لابن بدران (271/1)، مذكرة في أصول الفقه (ص 281).

(7) انظر: مختار الصحاح (ص513) .

(8) تاج العروس، فصل الفاء باب الميم (16/9).

(9) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ } ، (ص: 489).

(10) الإبهاج للسبكي (27/3)، الإتقان (69/2)، إرشاد الفحول (302/1) المدخل لابن بدران (ص271).

الآية، ظهر لنا كثير من أنواع علومها المأخوذة من منطوقها ومفهومها.

فمن منطوقها: ثناء الله تعالى على من بعث فيهم رسوله محمداً، خاتم النبيين، صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين، وذلك إذ وسمهم بالإيمان، وأعلم بنعمه عليهم بالامتنان، وذكر بعض ما أحسن إليهم، وبين عدةً مما أنعم به عليهم، فقال عز وجل: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ}الآية، ومن مفهومها: الإشارة إلى القضاء السابق في اللوح المحفوظ، بإيمان من بعث فيهم رسوله صلى الله عليه وسلم ، إذْ سماهم قبل البعثة مؤمنين، باعتبار ما قضَاه وقدَّره، وفي اللوح المحفوظ قبل إخراجهم إلى الوجود سطره، فقال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً } قال: { عَلَى الْمُؤمِنِينَ } للبيان بقضائه السابق لهم بالإيمان، وهذا من بعض فضل الله عليهم والامتنان"[1].

من مفهوم الآيات: الإشارة إلى أقسام نعم الله تعالى، وهي –وإن كانت لا تحصى– فهي على ثلاثة أقسام كلها مأخوذٌ من هذه الآيات، فقسم أعيانٌ، وقسم أوصافٌ، وقسم معانٍ، فمن الأعيان: –وهو أجلها– رسول الله ﷺ الذي من الله عز وجل ببعثته على المؤمنين، بل أنعم به على جميع المخلوقين، قال الله عز وجل: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ } [سورة الأنبياء:107] ومن الأوصاف: في هذه الآيات: نعمة الله على هذه الأمة – أمةُ الإجابة– حيث سماهم المؤمنين، وخاطبهم في الكتاب المذكور فيه قوله تعالى: { وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ }: بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } وكذلك نعمته عليهم بالتزكية، من قوله تعالى {ويزكيهم} فصارت الأمة به صالحين أمةً وسطاً عدولاً خياراً. قال الله عز وجل في الكتاب الذي علمهم إياه: {كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس} ومن المعاني: علم الشريعة المشار إليه بقوله تعالى: { وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } ومن المعاني: عافية المؤمنين من الكفر وتوابعه، المشار إلى ذلك بقوله تعالى: { وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ }.[2]

المطلب الرابع عشر

إعجاز القرآن الكريم

أولًا: وجه الإعجاز في القرآن:

قال[3]: "والبلاغة على ثلاث مراتب: عليا ووسطى ودنيا، والكلام إذا اجتمع فيه الفصاحة، والجزالة، والنظم، كان كامل البلاغة، وأعلاها بلاغة القرآن لاجتماع هذه الثلاثة فيه.

(1) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ } ، (ص:).

(2) ابن ناصر الدّين الدمشقي، محمد بن عبد الله بن محمد، مجالس في تفسير: { لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ }، (ص:.

(3) المرجع السابق (ص: 479-481).

فالفصاحة: دلالة اللفظ على المعنى مع الإفصاح والإيضاح.

والجزالة: دلالة اللفظ على المعنى مع قلة حروف الكلم وتناسب مخارجها والاختصار.

والنظم: ترتيب الألفاظ وارتباط بعضها ببعض مع تناسب الكلمات وتوازن الحركات والسكتات، والدَّلالة على المعنى المراد، وهذا كله في القرآن مع أسلوبه العجيب الذي لم يعهد نظيره ونظمه الغريب الذي لم يسمع لكلام غيره تحريره ولا تحبيره، ولهذا عجز البلغاء كافة والفصحاء عامة عن الإتيان بسورة من مثله، وانقطعوا عن المعارضة بحديث من شكله، مع تحديهم وتوفر دواعيهم إلى المعارضة، ولم يقع ذلك منهم، ولا جاء شيء مثله عنهم.

قال الله عز وجل: { وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ } [سورة البقرة] الآية.

وفي هذه الآية معجزةٌ من وجه آخر، وهي: الإخبار عن نفي فعلهم الإتيان بسورة من مثله، فكان كما أخبر سبحانه، وقد قال عز وجل: { قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [سورة الإسراء].

فوقع التحدي من الله عز وجل على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سورٍ { أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [سورة هود:13].

أو بسورة واحدة. وهو أدنى التحدي عند الجمهور.

وقيل: وقع التحدي بآية واحدة لقوله تعالى: { فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ } [سورة الطور:34].

فلم يأتوا بشيء من ذلك، تعجيزاً من الله تعالى لهم عن ذلك، كما عجز المفحم عن نظم الشعر، مع اعتراف بعض فصحائهم وهو الوليد بن المغيرة المخزومي لما سمع أوائل (حم)

فقال: "إن فيه حلاوة، وعليه طلاوة، وإن أعلاه لمغدق، وإن أسفله لمعرق، وإنه ليعلو ولا يعلى، وما أراه بكلام البشر".

ثانيًا: نظم القرآن: وقال[1]: " ومن علوم القرآن المتعلقة بهذه الآية: حسن بيان كلمها، وتعديل معاني نظمها، ومناسبة فواصلها، وارتباطها بأوائلها، وهذا من أنواع ضروب نظم القرآن، وقد صنف فيه غير واحد

(1) ابن ناصر الدين الدمشقي، مجالس في تفسير قوله تعالى: (لقد من الله على المؤمنين)، (ص: 479-481

منهم: أبو علي الحسن ابن يحيى بن نصر الجرجاني[1]، وكتابه غريبٌ بديعٌ في بابه..."وقد جمع ابن ناصر الدِّين في النظم: الحُسن، والبيان في كَلِمها، وصواب المعنى، ومناسبة الفواصل، وارتباطها، وهذا يُنبئ عن نظرته الشاملة لإعجاز القرآن الكريم، وأنه ليس في نوع واحد من هذه الأنواع.

ثالثًا: رأي ابن ناصر الدِّين في القول بالصَّرْفَة: القول بالصَّرفة من المسائل المتعلقة بإعجاز القرآن، وهو قولٌ حقيقته: أن القرآن غير مُعجز من جهة كَلِمِه، ونظمه، ومعانيه؛ لكن الإعجاز وقع من حيث صرف الناس عن معارضته! ومما يؤسف له أن ينساق لهذا الخَرَف: علماء، وعُقلاء؛ كابن حزم الظاهري، مع شدة تمسكه بالنصوص، وتعظيمه للشرع، حيث قال: " "ولكن الإعجاز في ذلك: إنما هو: أن الله عزّ وجل حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله، دفع عنهم القوة في ذلك جملة"[2] قاله ردًا على من قال: أن وجه إعجازه: بلوغه أعلى مراتب البلاغة، والبيان ...

ومن تعريفات هذا المصطلح في كُتب علوم القرآن: " أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن وسلب عقولهم وعلومهم، وكان مقدوراً لهم، ولو تعرضوا له؛ لجاز أن يقدروا عليه، لكن عاقهم أمر خارجي، فصار كسائر المعجزات"[3].

ولا يسع المنصف إذا تأمل هذه الدعوى إلا أن تطيش في ميزان إنصافه؛ لِمَا تحمله من تهوين شأن القرآن، حتى يحتاج لبيان علوه – نَظمًا، ومعنى، وأثرًا – لقدرةٍ إلهية لكيلا يُجارى!

إن القرآن آيةٌ دالةٌ على المُرسل جل وعلا، وآيةٌ على صدق المُرسَل إليه ﷺ، وتقييد التحدي فيه بالصَّرف؛ مُبْطِلٌ لكونه آية، فالآيات لا تُسمى بهذا الاسم؛ إلا لمِيزة تُميّزها عما سواها، فلو أن التحدي مناطه الصَّرف عن المُعارضة؛ لظهر في نص التحدي ذلك، ولمَا تُرك؛ فإن الله عز وجل لا يتحدى البشر في آياته الشرعية من حيث الإيمان بها، وعدمه؛ لأن هذا يُناقض التكليف رأسًا، ولكن يتحداهم في آياته وسُننه الكونية، لأن مناطها القدرة الإلهية؛ قال سبحانه: { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ } [سورة الأعراف:146] وصرفُ الله لهم، هو دفعهم عن إبطال آياته الشرعية، وتعطيلها؛ فهو صرفٌ تكويني[4]،

(1) كتاب "نظم القرآن"مفقودٌ فيما أعلم، وآخر من رأيته ينقل عنه ابن عاشور في التحرير والتنوير، ويظهر أنه ينقل بلا واسطة، وذكر محققوا كتاب الوسيط للواحدي كثرة نقل الواحدي عنه (341/1)، وقد انتخب منه مكي بن أبي طالب القيسي، في كتابه:" انتخاب كتاب الجرجاني في نظم القرآن وإصلاح غلطه"،كما في إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطي (316/3)، وقد اضطرب في معرفة اسمه بعض الباحثين المعاصرين، فهذا تأكيدٌ على أنه: الحسن بن يحيى بن نصر الجرجاني.

(2) ابن حزم، أبو محمد، علي بن أحمد الظاهري، الفصل في الملل والأهواء والنحل (1/ 187). تحقيق: د. محمد إبراهيم نصر، وآخر، بيروت: دار الجيل، الطبعة 2، 1416ه-1996م.

(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن (2/ 226)، السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (2/ 328).

(4) يُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير (104/9).

وهو وعدٌ مُتَحَقِّق في كل زمان ومكان: أن يَعْجَزَ المتكبرون، الظالمون عن وأد الشريعة، وإبطالها، ولذلك وعدβ، وهو لا يُخلف وعده: بحفظ كتابه عن التبديل، والتغيير: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ } [سورة الحجر:9].

فتأمل الفرق بين التحديين[1]، والمُتحدى به واحد: آياته الشرعية، وأعظمها القرآن الكريم.

رأي ابن ناصر الدِّين في القول بالصَّرْفة: قال[2]: "وقد عَدَّ جماعةٌ من المعتزلة[3]، وغيرهم في وجوه إعجاز القرآن: الصَّرْفَة، لكنهم اختلفوا، فمنهم من قال: "صُرفوا عن القدرة على أن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا عن ذلك، ومنهم من قال: "صُرفوا عن التعرض له"[4]، قال علي بن عيسى ابن علي الرماني –وكان معتزلياً– في كتابه "النكت في إعجاز القرآن[5]": "وأما الصَّرْفَة: فهو صرف الهمم عن المعارضة، وعلى ذلك كان يعتمد بعض أهل العلم في أن القرآن مُعجز من جهة صَرف الهِمة عن المُعارضة، وذلك خارج عن العادة كخروج سائر المعجزات التي دلت على النبوة، وهذا عندنا أحد وجوه الإعجاز التي يظهر منها للعقول".

وما قاله الرُّماني –ومن نحا نحوه من اعتقاد الصَّرْفَة أنها من وجوه الإعجاز– فاسد، كما أشار إليه الإمام أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، وعلل فساده بأن إجماع الأمة قبل حدوث المخالف على أن القرآن هو المعجز، فلو قلنا إن المنع والصَّرْفَة هو المعجز يخرج القرآن أن يكون معجزاً، وذلك خلاف الإجماع، قاله القرطبي في تفسيره"[6].

والمُستفاد من كلام ابن ناصر الدِّين ، فيما نقله عن القرطبي أمران:

1- إبطال القول بالصرفة من جهة أنه خرقٌ للإجماع، فإجماع الأمة قبل ظهور مخالف أن القرآن هو المعجز بذاته؛ فإن قيل: أن منع الناس عن معارضته، وصرفهم عنه هو المعجز؛ لخرج عن ألا يكون معجزاً؛ وذلك خلاف الإجماع.

2- أنه يلزم من القول بالصرفة أن الإعجاز ليس في القرآن ذاته، وإنما في غيره، وهو عدم استطاعتهم، فالقرآن بزعمهم ليس معجزاً إنما الإعجاز في المنع، وهذا باطل.

(1) كلا الآيتين مساقها الخبر، والتحدي كامنٌ في نقضه.

(2) ابن ناصر الدين الدمشقي، مجالس في تفسير قوله تعالى: (لقد من الله على المؤمنين)، (ص:480

(3) وليد قصاب، التراث النقدي والبلاغي للمعتزلة، (ص:315، لمزيد إطلاع حول مقالة الفرق، وتطورها في هذه المسألة، انظر: الحمصي، نعيم، فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر، سوريا: مؤسسة الرسالة، الطبعة 2، 1400ه–1980م.

(4) ابن سنان، الخفاجي، سر الفصاحة، (ص:99-100.

(5) الرُّماني، عيسى بن علي، النكت في إعجاز القرآن، (ص:75

(6) القرطبي، عيسى بن علي، الجامع لأحكام القرآن (1/60-65).

قال أبو بكر الباقلاني (ت 403): "ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة؛ لم يكن الكلام معجزاً، وإنما يكون المنع معجزاً؛ فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه"(1).

وتأمل في قوله تعالى: { قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً } [سورة الإسراء:88]، حيث جمع الجن مع الإنس في التحدّي، ومعلوم أن قدرة الجن تفوق قدرة الإنس؛ فإن كانت القدرة مَسلوبةٌ منهم؛ فما فائدة هذا الاجتماع؟

ثم وجدتُ للسيوطي قوله: " فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم، ولو سُلبوا القدرة؛ لم يبق لهم فائدة لاجتماعهم؛ لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل به(2).

واختم هذه المسألة بأن دراسة آراء العلماء فيها، مبنيٌ على مجموعة من التصورات والعقائد، سواء في تعريف القرآن الكريم، أو في حدود قُدرة الإنسان، وهل الإنسان مجبورٌ أم مُختارًا فاعلًا؟ وما لم تُدرس هذه المسألة في سياق مُتكامل سيبقى الكلام فيها ترديدٌ لا جديد فيه.

الخاتمة: تتضمن أهم ما تم التوصل إليه من نتائج وتوصيات.

أولا: النتائج:

- أن علوم القرآن الكريم مرتبطةٌ بالسُنّة النبوية، فهي تُبين كثيرًا من مسائله، خاصة ما يتعلق بنزول القرآن، وتفسيره، والمسائل المرتبطة بذلك.
- اهتمام ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي – رحمه الله– بالعلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، وتطبيقها على الآية التي يُفسرها.
- تنوع مصادر ابن ناصر الدِّين الدِّمشْقِي ¬، والاستفادة من المصطلحات نقلا، وتطبيقًا بين علمي التفسير، والبلاغة.
- تميّز ابن ناصر الدِّين بالتمثيل، والاستشهاد على كثيرٍ من أنواع علوم القرآن، وهذه مِيزة مهمةٌ جدًا؛ فالتطبيق على مسائل علوم القرآن من النصوص الشرعية؛ يُسهل فهمها، ويُعين على ضبطها.

ثانيا: التوصيات:

مما يوصى به في خاتمة هذا البحث:

(1) الباقلاني، أبو بكر، إعجاز القرآن، (ص: 54).

(2) السيوطي، جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر، الاتقان في علوم القرآن، (ص: 485) تحقيق: محمد سالم هاشم، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة1، 2021م.

1- الاهتمام بتراث أئمة الإسلام، خاصة من خُدمت تصانيفهم، باستخراج آراءهم، وإضافاتهم في شتى العلوم.

2- الاستفادة من طريقة ابن ناصر الدِّين في عرض علوم القرآن بطريقة تطبيقية خلال دراسة الآيات القرآنية، وهذه نافعة للمعلمين، والمربين.